

الفصل الخامس

فجر الثقافة اليونانية

هوميروس وهسيودوس

معجزة اليونان – الإلياذة :

ينبغي أن نقسم بحثنا هنا إلى فصول لكي نريح القارئ ، غير أنه يحسن أن نضع نصب أعيننا أن مثل هذا التقسيم لا يتسق تماماً وطبيعة الموضوع لأنه ليس بين هذه الفصول حدود عازلة بل إن مجال بحثها متداخل بعضه في بعض ، يطغى بعضه على بعض . فالمرحلة التي قمنا بدراستها في الفصل الرابع أوصلتنا إلى العصر الموقيني أو المينوي المتأخر وهو الذي أعقبه العصر الهوميري ، ولكن جذور العصر الهوميري موقينية ، بل أكثر قدماً من العصر الموقيني . وعلى ذلك يلزمنا أن نستبق في أذهاننا أكثر ما نستطيع اصطلاحات العصر الموقيني والمينوي إن أردنا أن نقدر مدى الازدهار الهوميري .

يتحدث الناس كثيراً عن المعجزة اليونانية ، لأن هذه هي أبسط وسيلة للتعبير عن إعجابهم بما وصل إليه اليونان ، وعن عجزهم أن يجدوا له تعليلاً . فهذا الإعجاب يبدأ من نهاية العصر الموقيني ، ومن نهايته بالذات ، في وقت لم تكن الثقافة اليونانية الجديدة تحررت تماماً من أصولها . وأول ما خلف لنا هذا العصر ملحمة طويلة كتبت باللغة اليونانية ، وهي الإلياذة .

الشعراء المتجولون والمنشدون :

في رأيي أنه لا حاجة بنا إلى تحليل هذه الملحمة ووصفها ، فإن احتاج قارئ إلى شيء من ذلك فن السير أن يجد ضالته في مراجع كثيرة ، أو يمكنه

أن يقرأ في لغته ترجمة لهذه الملحمة نفسها. يقول الرواة الأقدمون إن الإلياذة من نظم هوميروس . ولو أردنا أن نجيب عن السؤال « من هو هوميروس ؟ » لم نستطع أن نجيب بأكثر من أن هوميروس « مؤلف الإلياذة » . ويبدو أنه ليس هناك من سبيل إلى الإفلات من هذه الدائرة . ومهما يكن الأمر فإن ذكر هوميروس شاع بسرعة عندما أخذت الحضارة اليونانية تقرب من النضج ، ولم يتطرق الشك إلى أحد في حقيقة وجوده . تخيلوه كهلا كفيف البصر^(١) ينشد أو يلقي مقطوعاته ، ونسبته إليها سبع مدن^(٢) يونانية ، فزعت كل منها أنها مسقط رأسه . وأمثال هذه الادعاءات المتضاربة خير شاهد على الجهالة ، ولو تزيّنت بزى العلم والمعرفة ، فهي تدل على أنه حتى في الأزمنة القديمة لم يبق للناس معرفة بهوميروس على أنه إنسان عادى . كيف أمكن حدوث ذلك ؟ كيف أمكن أن تبقى ملحمة عظيمة كهذه ويختفى مؤلفها ؟

على أن دراسة الأدب المقارن^(٣) في العصر الحاضر جعلت تفسير هذا السر أكثر سهولة ويسراً : فالإلياذة فريدة لاجتماع صفى القدم والجمال فيها . ولكن هناك قصائد مماثلة أبدعتها بين حين وآخر أمم عديدة في مختلف أرجاء المعمورة . ذلك لأن نفس العوامل . كما يبدو ، تنتج نتائج متشابهة في كل الأمم ، فالرغبة في تفسير أصولها وإحياء ذكرى الحوادث الكبرى في ماضيها ألهمت شعراء نجهل أسماءهم من أمم عديدة إلى نظم الأشعار . وكان إنتاجهم موزوناً على الدوام ، إلا فيما ندر ، لما جبل عليه الإنسان من حب دفين للنغم ، ومن جهة أخرى أعان النظم على الاستنكار . وهكذا أمكن حفظ التراث القوي بالنقل على الألسنة أبد الدهر دون حاجة إلى طريق الكتابة ، مع العلم بأن هذه الأشعار نظمت في أكثر الأحيان قبل أن تعرف الكتابة في كل أمة . يعيننا ذكرها في هذا المضمار ، أو على الأقل قبل أن تشيع الكتابة بين أهلها . وساعد الشعراء المتجولون المتنقلون من بلد إلى آخر على نظم هذه الأشعار وأنشدوها لإدخال السرور وإذكاء الروح العالية في نفوس أرباب ضيافتهم

ثم تطورت بعض القصائد التي حازت قبول الناس إلى مستوى واحد ، لا من حيث شكلها العام فحسب . بل من حيث خصائصها القصصية والأسلوبية . وأحببت الشعوب القديمة ما امتاز بالقدم من القصص ، وهي في ذلك لا تختلف عن أطفالنا اليوم . ومن البديهي أن القصص الجديدة لم تخل من عنصر الجدة والسرور ، ولكن كان سرور المستمعين أعظم حين يتعرفون قصة قديمة ، حيث يبعث الشاعر المتجول في أشعاره أبطالاً معروفين ، ويصفهم بألفاظ معروفة مألوقة . وترقب المستمعون الأوصاف الأخاذة والاستعارات بل الأبيات الشعرية الكاملة التي وافقت هوى في آذانهم واستهوت خيالهم تدريجياً في سابق المرات ، واستقبلوها بالابتسام أو بغيره من علامات الاستحسان^(٤) . ويدرك الشاعر المتجول الماهر أن الضرر كل الضرر في إهمال تلك الأشياء ، وهكذا تبلورت تدريجياً الخصائص الأخرى للقصة الشعرية من حيث المظهر والمادة .

ومن الممكن أن نفترض أن أكثر الشعراء المتجولين لم يختلفوا عن الموسيقيين الحاليين الذين يتنقلون في العصر الحاضر من مكان إلى آخر يؤدون مقطوعات حفظوها ، وإن أضافوا إليها شيئاً فهو ضئيل . لم يزد فن أولئك الشعراء المتجولين على الذاكرة الحافظة والأداء الجيد ، ما عدا فئة قليلة منهم دب الطموح إلى نفوسهم ، فتاقت إلى خلق قصائد جديدة ، أو إلى تحويل قصائد قديمة تحويراً تاماً ، أى أن هذه الفئة القليلة أشبهت جماعة المفتنين Virtuosi في عصرنا الحالي ، وهم الذين لا يقنعون بأداء مؤلفات كبار الموسيقيين ، بل يعمدون دائماً إلى أداء ما يتكرون هم من قطع موسيقية . ولذا اتسع المجال لتنوع كبير تتراوح درجاته بين المواهب الابتكارية التي لا بد أن تجد متنفساً وبين الروح السلبية الحافظة . على أن الشعراء المتجولين والتروبادور في جميع الشعوب اتفقوا على شيء واحد ، وهو استغلال الذكريات القومية في أشعارهم وأغنياتهم ، لأن مواهبهم الابتكارية والتقليدية تأثرت واسترشدت بضرورة إمتاع الجماهير ، وهذه تميل إلى القديم على وجه عام ، وليس لدى الشعراء المتجولين من وسيلة تاريخ العلم

لإمتاعها والفوز برضاها أفضل من إنشاء القصائد التي استهوت الأفتدة من قبل . ولذا اختتم الشعراء المتجولون مهما علت مقدرتهم وعبقريتهم الأصلية كما يحتم المتفننون الذين يضيفون إلى براجمهم أو ما يطلب إليهم ترديده encores بإنشاد الأغاني القديمة الحبيبة إلى الناس . والشاعر^(٥) الذي اصطلمحنا على تسميته هوميروس كان أكثر هؤلاء الشعراء المتجولين نجاحاً ومع أنه من المحال أن نعرف مقدار مبتكراته ولكن يمكن أن نفترض ونحن مطمئنون أنه مهما كانت كمية هذه المبتكرات ، فإنه ورث أكثر منها عن أسلافه ، وأنه أعان على تخليد أحسن ما ألف السالفون . ومن المحتمل أنه كان بوجه عام « ناشراً » عبقرياً ، جمع أفضل ما وصل إليه من قصائد ، وصقلها بما له من مقدرة فنية ، فجعل منها وحدة واحدة . وهذا الفرض يساعدنا على شرح وحدة الإيابة ، كما يعلل أيضاً سقطاتها التي تطالعنا بين حين وآخر من أمثال التكرار الذي لا تدعو إليه ضرورة وأمثال الانتقال بطريقة غير سليمة .

وتتضح طرق هؤلاء الشعراء المتجولين والمنشدين المتأخرين^(٦) بسهولة من الدراسة المقارنة للأدب المختلفة في العصور الأولى ، وتتضح أكثر بدراسة منتجات قرنائهم من الشعراء المتجولين والمنشدين في العصر الحاضر . وهذا ما فعله المرحوم ميلمان بارى (المتوفى عام ١٩٣٥) وهو من علماء فقه اللغة في جامعة هارفارد طاف بارى في يوغوسلافيا يحمل جهازاً للتسجيل وجمع ملحمتين شعبيتين طويلتين جداً من أفواه المنشدين أنفسهم . ومن سوء الحظ أنه لم يستطع أن يتم عمله^(٧) لوفاته بسبب حادثة معينة ، على أنه من المحتمل أن المنشد في عصر هوميروس لم يكن يختلف اختلافاً جوهرياً في وجهة نظره أو مزاجه أو طرائقه عن الشاعر اليوغسلافى الضرير هوسو الذى خلدت جهود ميلمان بارى أناشيده .

من الصعب علينا إلى حد ما أن نفهم الرواية الشفوية تمام الفهم ، لأنها مقدرة على استنكاره قصائد طويلة وهى ملكة كاد الإنسان يفقددها في العصر الحديث فقداناً تاماً ، غير أن هذه الملكة توافرت لبعض الأفراد في العصور القديمة إلى درجة تكاد لا تصدق لو لم تكن لدينا أدلة كثيرة عليها .

هوميروس :

« من هو هوميروس ؟ » سؤال لا فائدة منه لو أريد به أى رجل كان هو ؟ وما الفرق بينه وبين غيره من الشعراء المتجولين ؟ ومتى عاش وأين أقام ؟ وما أشبه ذلك . أما السؤال : هل كان هناك هوميروس ؟ فهو سؤال فى الصميم وإنى أظن أن من الممكن أن نجيب عليه بالإيجاب ، لأن وحدة الإلياذة التى تدعوى إلى الإعجاب على الرغم مما يعتورها من نقص يستحيل تعليلها بغير ذلك . لا يعيننا كيف نظمت أجزاءها المختلفة . ولا متى نظمت . كان هناك شاعر متجول فحل ربها على نسق من المحتمل أنه لم يختلف كثيراً عما وصل إلينا .

سوف نعود إلى المنهج الذى اتبع فى رواية الإلياذة فيما بعد . أما الآن فلتنجب أولاً عن سؤال هام : فى أى وقت تم نظم الإلياذة ؟ هل كان ذلك زمن حرب طروادة التى تتألف من بعض قصصها النواة التاريخية للإلياذة ، وهى الحروب التى اختلف المؤلفون اليونانيون فى تعيين تاريخها ، فجعلها بعضهم حوالى عام ١٢٨٠ ق.م. وأرجعها بعض آخر إلى ١١٨٠ ق.م. على أن الشك فى قرن واحد من الزمان لا يقدم ولا يزخر هنا ، لأن مدة من الزمن امتدت أضعافاً مضاعفة بالقياس إلى ذلك ، لا بد أن مرت بين الحوادث التاريخية الواردة فى هذه الملحمة وبين إتمام كتابتها^(٩) . ثم إن بعض أجزاءها - مثل قائمة السفن ، أو دليل الحملات الحربية اليونانية^(١٠) - ترجع إلى أقدم العصور ، أو بعبارة أخرى تنعكس فيها صور أسبق فى زمنها من زمن الحرب الطروادية ، مع العلم بأن البناء الفنى لتلك الأجزاء لم يك من المستطاع قبل القرن العاشر أو التاسع^(١١) بزمى طويل . فإن كان علينا أن نحدد قرناً واحداً لا غير فلن نبعد عن الحقيقة كثيراً إذا عينا القرن التاسع قبل الميلاد لأن هذا التاريخ يوافق جيداً الحوادث السابقة والمتأخرة .

ليس ثمة معنى للجدل فى هذا الموضوع أكثر من ذلك هنا ، ولا سيما

أن الجدل لن يصبح مقنعاً مهما تشعب وتنوع . ولكنى أود أن أؤكد نقطة واحدة فقط . وهي أنه ليس ثمة إشارة واضحة للكتابة في الإلياذة (ولا في الأوديسة فأمرهما هنا سواء) عدا إشارة واحدة جاءت عابرة نصها « ولكن برويتوس أرسل بيايروفون إلى لوقيا يحمل إشارات قاتلة . إذ نخط علامات كثيرة على لوحين منطبقين لتسميم عقل الملك (ضد بيليروفون) »^(١٢) . لا شك عندى أن « العلامات القاتلة » تشير إلى نوع من الكتابة كالكتابة المينوية التي كشفها في جزيرة كريت سير آرثر إيفانز . فإن لوقيا كانت مستعمرة كريتية . وعلى هذا نستطيع أن نتخذ من هذا البيت المقتطف من أشعار هوميروس برهاناً على أن نوعاً من الكتابة كان معروفاً في تلك الأيام . غير أنه لا حاجة بنا إلى هذا لأن لدينا نماذج كثيرة من تلك الكتابة . على الرغم من أن رموزها لم تحمل بعد . ذلك أن الحضارة الإيجية عرفت الكتابة وربما يرجع اختراع الكتابة إلى جزيرة كريت ، لكن استخدامها اقتصر على النقوش والمدونات القانونية أو السحرية والقوائم والحسابات وغيرها من المتون الفنية القصيرة . دون أن يدور بخلد شاعر متجول أن يستعملها في الأغراض الأدبية . وهذه حقيقة لا تقتصر على بلاد اليونان فحسب ، بل هي حقيقة عامة أجمع عليها الباحثون في علم الإنسان وفي علم فقه اللغة المقارن . والواقع أن مرحلة من الزمان تمتد أحياناً إلى عدة قرون تكون بين اختراع الكتابة وبين انتشار استخدامها . ثم إنه من باب الخضوع للعادات التي امتدت جذورها في الماضي السحيق ، واعتباراً لمصالح الشعراء المتجولين لم يكن الشعر الحماسي من أول الأشياء التي دونت كتابة وإنما من آخرها . ونستطيع أن نجزم أن هوميروس لم يكن يهتم بالكتابة إلا على أنها وسيلة للتفاهم نادرة غامضة يمكن أن تستخدم في الأحوال الشاذة . ولكنها وسيلة لا تعنى رجال الأدب . ونستطيع كذلك أن نؤكد أنه لم يدر في خلد هوميروس أن يدون منظوماته . وكيف يكون في استطاعته أن يفعل ذلك مع العلم بأن لا قيمة لاختراع الكتابة في الأغراض الأدبية إذا لم يكملها اختراع أدوات الكتابة .

ولم يكن في زمن هوميروس من هذه الأدوات ما يلائم المؤلفات الطويلة ، فأوراق البردى لم تصبح ميسورة في بلاد اليونان حتى بداية الأسرة السادسة والعشرين المصرية (أسرة صا الحجر) أى أثناء حكم بسمتيك الأول (٦٦٣ - ٦٠٩) .

ملحوظات أكثر في الإلياذة :

وليست الإلياذة أقدم أثر أدبي في الآداب الأوروبية ، من حيث الحجم والمستوى فحسب ، بل - وهذا هو معجزة المعجزات - من حيث علو الذروة ، والطول البالغ ^(١٣) . لا فضل طبعاً في كبر الحجم ، ولكن المقطوعة الطويلة أفضل كثيراً من أى جزء منها . زد على ذلك أنه ١٤ يشير الدهش أن نجد على عتبة الأدب الأوربي نفسه ، لا قطعاً ضئيلة قليلة استمد منها الشعراء الأولون لتجربة مواهبهم ، بل أثراً أدبيّاً ضخماً يجمع جهود كثير من العقول والأجيال وليس لذلك من تشبيه إلا بأن نفترض أن أقدم الآثار المعمارية المعروفة لنا جاءت في الحجم ودقة المعمار كإحدى الكنترايات العظيمة التي خلفتها القرون الوسطى . فالإلياذة في نهجها وأسلوبها جد قريبة من الكمال ، حتى إنها بقيت نموذجاً للتفوق إلى أيامنا هذه . وإنما نعجب بها لا لأنها ترجع إلى عصر سحيق بل بقطع النظر عن ذلك . والواقع أن أكثر النقاد يجمع على أن الإلياذة أعظم الملاحم الغربية ، مع جواز استثناء الأوديسة . وهذه الملحمة ، أعنى الإلياذة - دعوى أكرر - لم تظهر في نهاية عصر الثقافة اليونانية ، أو حينما بلغت هذه ذروتها ، بل ظهرت في بدايتها ، بل أكاد أقول قبل أن تبدأ ^(١٤) . ولذا كان هوميروس حقاً بشير الثقافة اليونانية ، والثقافة الأوروبية ، والثقافة الغربية ، وهو بشير يبلغ من الفحولة أنه حتى رومنا هذا لا يزال يطل علينا من عليائه الفنى . أليس ذلك بمعجز؟ أو هل يستطيع العقل أن يأتي بشيء يعسر تعليقه أكثر من ذلك ، أو أكثر إعجازاً من ذلك ؟

الأوديسة : هوميروس الثاني :

أضف إلى ذلك أن المعجزة لم تكن وحيدة . فإن استمرت وقتاً ما فورية فلمها لم تبق كذلك مدة طويلة . ذلك أنه ظهرت بالتدرج في سماء الأدب ملحة ثانية هي الأوديسة . ونستطيع أن نقول في اطمئنان إنها كملت بعد الإلياذة ، فظهرت بعدها بنحو قرن أو أكثر . غير أن الرواة نسبوا كلتا القصيدتين إلى مؤلف واحد هو هوميروس ، ولكي نوفق بين ما تناقله الرواة وبين ما يمكن أن نستقي من الأدلة الداخلية فإننا أستطيع أن أقترح أن يسمى مؤلف الإلياذة هوميروس الأول وأن يسمى مؤلف الأوديسة هوميروس الثاني . وهذا الاقتراح لا يؤكد الفرق بينهما تأكيداً مطلقاً ، بل إنه لا ينفي الاحتمال البعيد أن هوميروس الثاني ربما هو نفسه هوميروس الأول . بعد أن بلغ من الكبر عتياً^(١٦) .

وينبغي أن نذكر هنا عندما نعين تاريخين مختلفين للملحمتين أن أمثال هذه التواريخ يحوطها دائماً شيء من الشك . لأن كلا من القصيدتين يحتوي على قصص وأفكار وتعبيرات أو أبيات محددة تمثل طبقات زمنية متباينة . أي إن كلا من القصيدتين شهد مراحل مختلفة في طول عملية التجميع والتسوية . ولم تكتمل إحدى القصيدتين في تاريخ معين . لأنه سواء من ناحية الألفاظ أو المميزات النحوية أو البلاغية أو العروضية يجد الباحث كثيراً من العناصر مشتركة بين الإلياذة والأوديسة^(١٧) ، بل تشترك القصيدتان في الصفات الأدبية الكبرى على حد سواء . أي سهولة الفكر والتعبير مع سرعة الانتقال الموضوعي ، بالقياس إلى بقاء الملاحم الشرقية وغزارتها البالغة وتعبيراتها المنتفحة .

على أن الفرق بين الإلياذة والأوديسة كبير في الموضوع والطابع . فالإلياذة قصة حروب على حين أن الأوديسة قصة سلام . من حياة عائلية وتجار ورحالة ومستعمرين . وهي مليئة بالحب والخيال . كما هي مليئة بالسحر ، وهي كذلك

تزنخر أكثر من الإلياذة بأنغام خرافية وأوتار أخلاقية . إن الوحدة الفنية في الأوديسة أكثر عمقاً وطابعها أكثر هدوءاً ، فهي نوع من القصة ، وهي الأولى من نوعها في عالم الأدب^(١٧) ، فضلاً عن أنها تنطوي على مغزى خلقى ، ومصداق ذلك قول جيفر : «من المحال أن تقرأ الأوديسة دون أن تشعر بهدفها التعليمي العام ، مع أن أجزاء كثيرة من القصيدة لا تكشف عن شيء من ذلك . ويتأتى الشعور من النزاع الروحي والتطور الذي يسير موازياً للحوادث في قصة تليماخوس ، وهو ما يساور الإنسان عبر الدهور ، وهو في الواقع موضوع هذه الحوادث وأداة ذروتها النهائية»^(١٨) . ويوجد بين القصيدتين مرحلة زمنية واضحة انتشرت فيها الثقافة والتحضّر والسلم ، ولو أنه ليس من المستطاع تحديد هذه المرحلة ومداهها على وجه التأكيد، ومن المحتمل أنها امتدت قرناً أو قرنين ، أو أنها فارق طبيعي بين جيلين متتاليين ، أولهما أكثر حباً للحرب وثانيهما أكثر جنوحاً للسلم ، أو فارق بين نضج الشيخوخة وثور الشباب لتعليل ما بين القصيدتين من تضاد .

وأحسن برهان في رأبي على قيام مرحلة زمنية طويلة بين الإلياذة والأوديسة أن الإلياذة تذكر البرونز أربع عشرة مرة . لكل مرة يذكر فيها الحديد . أما في الأوديسة فالبرونز يذكر أربع مرات . لكل مرة يذكر فيها الحديد . هذه حقيقة لها دلالتها . لأن هذا الفارق لا يمكن أن يكون مقصوداً ، إذ ليس من المعقول أن يفكر الشعراء في هذه النسبة العددية ، وإنما يتأثر كل منهم ببيئته التي يعيش فيها ، مع العلم بأن جذور كل من القصيدتين نبتت في عصر البرونز ، ولكن هوميروس الثاني كان أكثر معرفة بالحديد ، وأقل معرفة بالبرونز من هوميروس الأول .

والخلاصة أنه إذا قلنا إن الإلياذة اكتملت حوالي منتصف القرن التاسع ، فن المستطاع أن نقول أيضاً إن الأوديسة اكتملت بعد ذلك بقرن من الزمان ، ولكن مهما قيل عن هذا الفرض فهو لا يعدو أن يكون حلساً مقبولاً . وبعد

إبداء هذا التحفظ سيكون من السهل أن نلتزم نطاق الرواية القديمة ، وأن نتكلم عن « هوميروس » على أنه مؤلف للقصائد الهوميرية بوجه عام . وهذه القصائد ولا سيما الإلياذة والأوديسة حقائق مادية ، ونحن نعى هاتين الملمحتين عندما نتكلم عن هوميروس .

الروايات الهوميرية القديمة :

لا مفر من غموض أقدم ما نعرف عن الإلياذة والأوديسة ، ومنه أن الشعراء المتجولين والمنشدين حفظوا هاتين القصيدتين من البلى بإنشادهما في اللواتم أو في الأعياد الدينية ، وأن اسم هوميروس بلغ من الذيوع في منتصف القرن السادس (حوالي ٥٤٠) مبلغاً جعل أكسينوفانيس من بلدة كولوفون أن يقول : « تعلم الناس جميعاً منذ البداية من هوميروس »^(١٩) . وفي زمن بندار أى بعد ذلك بنصف قرن تسمى بعض المنشدين بأل هوميروس أو الهوميريين Homēridai^(٢٠) . ولكن ليس لزاماً علينا أن نستنتج من ذلك كما فعل الشراح القدماء أن الهوميريين سلالة من صاب هوميروس ، إلا من الناحية الروحية . فالهوميريون كانوا أولئك الذين ساروا على آثار الشعراء المتجولين الأولين ، ولا سيما أعظمهم شهرة وهو هوميروس نفسه . أى إنهم كانوا بكل ما في هذه الكلمة من معنى حفظة الروايات التي يتناقلها الناس عن هوميروس . واتسع انتشار النص الرسمي لأشعار هوميروس بين الناس^(٢١) ورسخت شهرة هوميروس بين أبناء جنسه في القرن الخامس . ومن الدليل على ذلك قول أحد أضياف أكسينوفون : « تمنى أبي أن أصبح رجلاً فاضلاً ، فأمرني أن أحفظ أشعار هوميروس عن ظهر قلب »^(٢٢) . ثم إن أفلاطون كرمه في النهاية وإن يك على الرغم منه ، وذلك عندما أشار^(٢٣) إلى الذين يمدحون هوميروس ويسمونهم معلم اليونان ، إذ وصفه هو بأنه أعظم الشعراء وأول كتاب المآسي ، ولو أنه

أخرجه من مدينته . وعلى الرغم من فرار أفلاطون الذى لا يستند إلى أساس يلقى بالأحرار ببقى هوميروس فى المدينة . واحتفظ بمكانته فى قلب كل يونانى . أما استحقاقه لقب « معلم اليونان » فيبرهن عليه تاريخ جميع الشعوب التى تتكلم اليونانية إلى يومنا هذا . ولم يتشكك فى ذلك سوى أفلاطون ، ولم يسمح المسيحيون أنفسهم لكراهيتهم للوثنية أن تنقص من إعجابهم به . والواقع أن هوميروس يستأهل لقباً أعظم ، فهو لم يكن معلم اليونان فحسب ، بل هو أحد معلمى الإنسانية . وسنعود مرة ثانية إلى هذه النقطة .

ما الذى علمه هوميروس ؟

ما الذى علمه هوميروس ؟ أول ذلك أنه علم اللغة اليونانية . فؤلفاته الخالدة ساعدت على توحيد تلك اللغة ، أو بالأحرى أعانت على السمو بها إلى ذلك المستوى من التفوق والمكانة الذى لا تصل لغة إليه إلا عن طريق الخرائط الأدبية . ثم إن أشعاره أصبحت إنجيلاً للشعب اليونانى ، واستروح اليونان الاستماع إليها . وجعلوا منها لأنفسهم ولأبنائهم نماذج للشرف والذوق السليم واللغة الرصينة . وعلى الرغم من طغى به هذا الإنجيل الهوميروى من قصص ونحىال ، فإنه كان كتاباً غير مقدس بعيداً عن أى شىء كهنوتى ، خالياً من الطيرة والسحر إلى درجة تدعو إلى الإعجاب ، وفى هذا ما يبرر القول بأن هذا الشاعر الأيونى أبو العلماء الأيونيين الذين سوف نشرح جهودهم فيما يلى .

ثم إن الإلياذة والأوديسة علمتا التاريخ ، وهذا هو الأمر الثانى ، إذ أوضح هوميروس تاريخ الأصول الميثوية والموقينية التى كانت فى بعض نواحيها غامضة بعيدة التاريخ على حين كانت فى نواحيها الأخرى قريبة مألوفة . بفضل ما تداوله الناس من آلات وعادات وكلمات وحكايات شعبية سهلة المعرفة والفهم على مستمعها . ذلك أن الوظيفة الأساسية للشعر الجمامى هى تسجيل

أحداث الماضي للأجيال التالية والحيلولة دون اندثار هذه الأحداث ، وليس من المستطاع أن تفصل الإشارات التاريخية في أشعار هوميروس دون أن تكون بذلك قد وضحتنا معالم الحضارة الموقينية . ويجد القارئ وصفاً موجزاً بخصوص هذه الحضارة في الفصل السابق من هذا الكتاب ، فضلاً عن مراجع وافية ليتابع دراسته لهذه الحضارة إلى أقصى ما يتغنى من الدراسة . وينبغي أن نشير هنا إلى أن كل كتاب عن الآثار المينوية أو الإيجية مليء حتماً بالإشارات إلى هوميروس . فشعر هوميروس يساعد على شرح الآثار ، وهذه الآثار بدورها تساعد على تفسير هوميروس . وأحدث الشراح الذين نشروا أشعار هوميروس يشيرون على الدوام إلى الآثار الإيجية ، وأول أولئك ولفجانج هيليج (١٨٨٤) الذي جعل من الآثار وسيلته إلى شرح أشعار هوميروس ثم حذا حذوه آخرون كثيرون (٢٤) .

يعطينا شعر هوميروس صورة للعصر الموقيني وهو في دور الأفول . أي حين أمسى ذلك العصر لا يذكره بوضوح وبهجة سوى الشيوخ والشمرء المنجولين . ذلك أن قصائد هوميروس انجهدت إلى الماضي ، شأنها في ذلك شأن كل أشعار الحماسة ، ولذا يبدو متناقضاً بعض الشيء قولنا بأن هذه القصائد كانت بشيرة عصر جديد . إذ هي ذروة أو نهاية أكثر منها بداية ، مع أنها أعطت الأجيال الجديدة - أعني اليونانيين - أساساً متيناً يشيدون فوقه حضارة جديدة ، وأمدتهم بمستوى أدبي ومرشد سلوكي ، كما منحهم فخراً وكرامة .

وبتعبير آخر إن إيماننا يزداد يوماً بعد يوم أن الحضارة اليونانية في زمن هوميروس لم تكن نبتاً جديداً أصيلاً ، بل قطعة ثانية من الحضارات الإيجية التي أذبلتها مدة سلسلة من هزات عنيفة كادت تدمرها تدميراً . غير أن الحياة لا تفتني فناء تاماً مهما طرأ عليها من عوامل الفناء مثال ذلك نمو النباتات وترعرعها في إقليم دمره ثوران بركاني أو لفحته لفحة طويلة من الجفاف . فربما يظن

الإنسان أن كل هذه النباتات انقرضت . والحقيقة غير ذلك . إذ تظل الحياة نائمة . وربما ظلت كذلك مدة طويلة . ولكن لينزل العيث ولتهبط الرحمة من السماء ، فتظهر الحياة بسرعة . وكأحسن ما كانت . ومن البديهي أن يضيع الكثير من معالم الحياة في هذه العملية وأن تختلط عناصر جديدة بعناصر قديمة . ومعنى هذا أن الحضارة اليونانية الجديدة كانت إحياء للحضارة القديمة . وجاء هذا الإحياء وليد فكر عامد يحصل الشعراء المتجولين والمستمعين لإيهم . واختلفت هذه الحضارة الجديدة في نواح عديدة عن الحضارة الإيحية ، لتغير : أحوال الحياة تغييراً عميقاً إذ حل عصر الحديد . وأضحى من الخيال لعصر البرونز أن يعود .

الجغرافية :

من المفرد أن نحلل أشعار هوميروس من ناحية كل من العلوم الحديثة في العصر الحاضر . غير أن هذا يؤدي إلى الإطالة في غير فائدة كبيرة ، فضلاً عن الصعوبة بل الاستحالة في تحديد أصول المعرفة العامية في هذه الأشعار . كم من هذه المعرفة يرجع إلى ما قبل التاريخ ، وكم منها مينيوناً قديماً . وكم منها موقينياً . وكم منها يونانياً محدثاً ؟ وانضرب لذلك مثلاً أنه في العصر الذي نظمت فيه الإلياذة اجتمعت معلومات جغرافية كثيرة بفضل البحارة والمستعمرين من الفينيقيين والإيحيين . وأن معالم البحرين المتوسط والأسود صارت معروفة إلى درجة لا بأس بها . ثم إن بحارة شجعاناً بلغوا شاطئ المحيط الأطلسي . وعادوا بفكرة نهر أقيانوس العظيم الذي يجرى حول قرص الأرض جرياً متصلًا دون بداية أو نهاية^(٢٥) . واختلطت هذه الفكرة بأسطورة أوقيانوس بن السماء (أورانوس) والأرض (جايا) ، وهو الذي تزوج ثيتيس ، وهو أبو الماء من قديم الزمان وكذا جميع الأنهار^(٢٦) . وثمة قصة أخرى هي قصة بحارة السفينة « أرجو » الذين أبحروا على ظهر هذه السفينة تحت قيادة

ياسون للاستيلاء على الجزة الذهبية في كونجليس (على الشاطئ الجنوبي الشرقى للبحر الأسود) وهي قصة تخلد ذكرى بعض المغامرين الأولين في البحار . وأشد الشعراء المتجولين قصصاً أخرى كثيرة مماثلة تثير الإعجاب دون أن يعنوا بالدقة الجغرافية أو يتجنبوا التناقض الجغرافي . فامتزجت في قصصهم الجغرافيا بالأساطير ، كما امتزجت الحقائق بالخيال امتزاجاً لا سبيل إلى تمييز أحدهما من الآخر . والواقع أنه من العيب أن نحاول متابعة أسفار أوديسيوس أو تطواف السنديباد البحري في الأزمنة التالية ، إذ عنى القصص اليونانيون بالمغامرات والعجائب ، ونسوا الحقائق الجغرافية ، ما عدا حقيقة واحدة غلبت على أذهانهم وهي الرياح الأربع : بورياس وبوروس ونوتوس وزفيروس - وهي تمثل بطريقة بدائية الجهات الأربع الأصلية : الشمال والشرق والجنوب والغرب ، ومن هذه الجهات الأربع الأصلية اثنتان كانتا معروفتين منذ القدم وهما الشرق والغرب ، بسبب شروق الشمس والنجوم وغروبها ، أما الجهتان الأخريان فأوحى بهما انتظام الأجواء في بحر لينة . ولذا نستطيع أن نقول بأن البحارة اليونانيين الأولين عرفوا مواقع بلاد البحر المتوسط معرفة جيدة ، ولكنهم لم يعدوا هوميروس بالكثير من هذه المعرفة ، أو أنه لم يهتم هو بها .

الطب والفنون والحرف الأخرى :

أما الذى نجده فى أشعار هوميروس من علم بالطب فلا يعدو مستوى المعرفة المنتظرة بين أناس أذكىاء متناحرين ذوى تجربة فى الحروب وجرحاها وطرق علاج الجروح . ومن ذلك أنهم عرفوا كيف يدهنون أجسامهم بالزيت aleiphō lipia أو elaiō lip' ، وأن أرباب البصيرة منهم توافرت لهم الفرص لمعرفة مختلف التأثيرات الناجمة عن جروح معينة ، ومعرفة خواص الإغماء ، وأعراض التشنج الذى يصيب الإنسان عند الاحتضار . وتحتوى الملاحم على أوصاف واضحة كثيرة لمثل هذه الحالات ، وتدل على وجود أطباء محترفين

مرموقين بعين الاعتبار والتقدير - لأن « طبيياً واحداً يعدل رجلاً كثيراً آخرين »^(٢٧) - ولكنه لم يكن من المستطاع دائماً أن يوجد الطبيب في ميدان القتال ، فكان على المحاربين أن يساعد بعضهم بعضاً في أوقات الحاجة . ومع أن معظم الخدمة الطبية كان جراحة . عنى الأطباء بالطب الباطنى عنايتهم بالجراحة ، واستخدموا عقاقير من مختلف الأنواع^(٢٨) *introi polypharmacoi* واشتغلت بعض النساء أيضاً بالأعمال الطبية . من الترييض وجمع الأعشاب وإعداد العقاقير ، مثل إعداد الشراب المخدر المهدي *pharmacon nēpenthes* الذى أخذت هيلانة سر صنعه عن امرأة مصرية^(٢٩) . أما الثبت المعروفة باسم المفردات التشرىحية الهوميوية فيحتوى على نحو مائة وخسين كلمة ولا يزال لفظ هوميوى مستعملاً في علم وظائف الأعضاء ، وذلك أن مكان الروح *anima, spiritus -- thymos psychē* عند اليونان في الحجاب الحاجز (*phrenes*) ومن هنا جاءت اثنتان من الألفاظ الإنجليزية (*phrenetic*) و (*phrenology*) ! على أنه لا ينبغي قبول هذا التحديد الموضوعى على حرفيته ، لأن الكلمتين *phrēn* و *phrenes* تدلان في أشعار هوميروس على أعضاء أخرى . ولا سيما القلب أو الأجزاء التى حول القلب ، وكذا على مركز العقل^(٣٠) . ويوضح ذلك أن الديونانيين الأولين استخدموا لفظ *phrēn* استخدامنا للفظ قلب حتى الآن ، إذ نقول إذ فلانا « ذو قلب طيب » ونحن نعنى « أنه شفيق »^(٣١) . ولهذا لا ينبغي أن نقطع بمعرفة هوميروس بالتشريح إلا بقدر ما نقطع بمعرفته بالجغرافيا .

لم يكن أرباب الحرف وقتذاك وفي أزماننا هذا أناساً على جانب من الثقافة يتقنون صناعة الكلام ؛ بل كانوا صناعاً مهرة - من حدادين وفخارين ونجارين وأساكفة ، ولديهم الكثير من الخبرة والمعرفة بالأدب الشعبى . وعكفت النساء على الغزل والنسيج ، وعرف الزارعون شئون الحيوان والنبات ، وتعلموا استعمال الروث *copros* فى تسميد حقولهم^(٣٢) . وغلب التنقل على أرباب الحرف

(dēmiurgos) من بلد إلى آخر وكذا فعل الكاهن والطبيب (iētēr eacōn) والبناء والشاعر المتجول^(٣٢) ، وهذا هو كل ما تدل عليه أشعار هوميروس من المعرفة بالعلوم ، أى أن الأفاضل الشعبيين الموقنين ، مع قليل من الإضافات الجديدة وشيء من الاختلاف .

أما التمرينات البدنية - وهى الألعاب الرياضية والرقص التوقيعى العام وغيره - ١٤ بلغ به اليونانيون فيما بعد إلى أعلى ذروة الإبداع فى أعيادهم الأولمبية^(٣٤) ومواسمهم الأخرى ، فن الواضح أنها كلها من أصل كريتى . ويشير هوميروس إلى المرقص choros الذى بناه ديدالوس ذات يوم فى مدينة كنسوس الفيحاء لإريادنى ذات الشعر الجميل^(٣٥) . وتصور النقوش الكريتية البارزة كثيراً من هذا الرقص . وأما الآلات الموسيقية فترجع كذلك إلى أصول كريتية .

هوميروس هو أول مرب فى العالم الغربى بفضل المؤلف الفرنسى فينيلون : كان هوميروس معلم اليونان . هذا قول ينبغى أن يفهم أوسع الفهم ، لأنه يعنى الناحية الإنسانية لا ناحية المعرفة بالعلوم أو الحرف . ويستطيع القائل أن يقول إن هوميروس علم اليونانيين كل شىء أسامى ، وأن يقول كذلك إنه لم يعلم شيئاً . مثال ذلك أنه لم يعلم التاريخ إلا نزرأ عن غير قصد ، ولكنه أعطى الناطقين باليونانية مثلاً علياً للشرف والعزة والفضيلة والسلوك والشعر ، وإليه يرجع الفضل فى أنهم تزودوا منذ أيامهم الأولى بذخيرة من مقومات الإنسانية ثم إنه أيقظ فيهم الحس الأدبى والفنى ، أو إنه أمددهم بقوة فى هاتين الناحيتين ، وكيفما كان الأمر اتسم ما قام به بوضوح ورزاق عجيبة ، دون تصوف لا تدعو إليه ضرورة ، أو ثرثرة لا طائل تحتها . وبقيت آثار الإلياذة والأوديسة ماثلة فى التربة مثلاً متصللاً حتى يومنا هذا دون انقطاع يذكر ، بل ليس فى العالم الغربى تراث أقدم منهما أو أكثر استمراراً^(٣٦) .

ومنذ العصور القديمة إلى وقتنا هذا تقريباً يعمل المنشدون ورواة القصص

في مختلف البلاد والعصور ، ففي أوراق البردى^(٣٧) وفي الأدب البيزنطي والأدب اليوناني الحديث إشارات إليهم ، كما في الأفاصيص الشعبية الدائرة على السنة الناس في بلاد اليونان الحالية ، على أن التراث الهوميروى اقتصر أولاً على الناطقين باليونانية ، ولذا لم يمتد هذا التراث إلى شعوب غرب أوروبا امتداداً كبيراً قبل القرن الرابع عشر الميلادى . والواقع أن هذا الجزء الرئيسى الأساسى من الثقافة اليونانية لم ينتقل إلينا مع علوم اليونان وفلسفتهم عن طريق السريان والعرب^(٣٨) . وعندما عملت الكنيسة الكاثوليكية في عصورها الأولى على إماتة اللغة اليونانية في غرب أوروبا ، بات هوميروس غير معروف إلا قليلاً جداً عن طريق الأدب اللاتينى في العصر الرومانى والاقباسات اللاتينية الكثيرة من اليونانية في العصور الوسطى فضلاً عن القصائد الشعبية أو القصص العامة^(٣٩) ثم وجه إحياء الآداب اليونانية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى أنظار العلماء إلى النص الأصيل لأشعار هوميروس ، حتى إذا صدرت الطبعة الرئيسية princeps التى نشرها ديمتريوس خلقونديليس (فلورنسة ١٤٨٨) غدا هذا النص ثابت الأركان في غرب أوروبا (شكل ٣٦) ، وعندئذ صار هوميروس أحد معلمى أوروبا الغربية في استمرار غير مقطوع .

ليس من الممكن هنا أن نشرح قصة انتقال هذا التراث الهوميروى إلى غرب أوروبا ، لأن أسرع وصف للمعالم الأساسية في ذلك الموضوع يتطلب مجالاً كبيراً ، فضلاً عن أن مراحل هذا الوصف السريع سوف تكون تكراراً يدعو إلى الملالة . فلنختار قصة واحدة جديدة بإثارة الاهتمام ، وهى قصة ذائعة بين القراء الفرنسيين ، وإن تك أقل ذبوعاً بين الناطقين بالإنجليزية . وخلصتها أنه بعد أن عين الملك لويس الرابع عشر القس فينيلون (١٦٥١-١٧٥١) مريباً لحفيده دوق برجندى ، وضع فينيلون هذا لتلميذه القصة التعليمية المسماة مغامرات تيلياماك (شكل ٣٧) . ولقى ذلك الكتاب الذى طبع أولاً سنة ١٦٩٩^(٤٠) دون ذكر لاسم مؤلفه نجاحاً باهراً ، وطبعت منه طبعات كثيرة في فرنسا والأراضى

LES AVANTURES
DE
TELEMAQUE
ex libris Est. pinhas



A PARIS,
Chez la Veuve de CLAUDE BARBIN¹
au Palais, sur le second Perron
de la sainte Chapelle.

M. DC. XCIX.

Avec Privilege du Roy



LES AVANTURES
DE
TELEMAQUE

CALPESON ne pou-
voit se consoler du
départ d'Ulysse :
dans sa douleur elle
se trouvoit malheureuse d'être
immortelle. Sa grotte ne
resonnoit plus du doux chant
de sa voix . les Nymphes qui la
fervoient n'osoient luy parler,
elle se promenoit souvent
seule sur les gazon fleuris,

شكل (٣٧) - صفحة العنوان وأولى صفحات الطبعة الأولى لمغامرات تيلياك (جزءان ، ١٤٥ م في الطول) . يحتوي الجزء الأول في آخر صفحة فيه (ص ٢١٦) على الإذن الملكي المورخ في فرساي في ٦ أبريل ١٦٩٩ من النسخة المحفوظة بمكتبة كلية هارفارد .

الواظنة سنة ظهوره ، ولكنه أثار نقداً كثيراً بين أفراد الحاشية الملكية لما اشتمل عليه من جنوح إلى السخرية والمثالية الخيالية ، و « التحرر » مما أدى إلى فصل مؤلفه عن وظيفته . أما ذبوع هذا الكتاب أول سنة ظهوره فرجعه في الأكثر إلى الطباعات التي ظهرت في غير فرنسا ، وكان له أعمق الأثر في الفكر والأدب في القرن الثامن عشر وجزء كبير من القرن التاسع عشر الميلادي (١١) .

الروايات الخرافية :

أحيطت شخصية هوميروس بالخزعبلات من البداية تقريباً ، فلم ينكر اليونانيون الأولون وجوده ، ولكن سبع مدن ادعت بنوته ، وسبع مدن مختلفة تاريخ العلم

كثير جداً المسقط رأس أى إنسان ، وإن تك جد قليلة لبطل خرافى . وبعد أن أصبحت أشعار هوميروس على مرّ الأيام أساساً للتعليم حينما كانت اللغة اليونانية هى السائدة بين الناس كثرت الخرافات حول ناظمها ، وتعددت المدن التى ولد فيها . مثال ذلك : أن هيلودوروس من مدينة حمص (لإيميسا) كتب فى شبابه (حوالى ٢٢٠ - ٢٤٠ ق. م .) (٤٢) قصة شهيرة زعم فيها أن هوميروس ولد فى مدينة طيبة بمصر الفرعونية . وأنه ابن الإله هيرميس (= توت) من زوجة كاهن مصرى (٤٣) . ويتضح لنا من أوراق البردى أن هوميروس كان معروفاً جيد المعرفة فى الأوساط اليونانية فى مصر ، ومن المحتمل أن هيلودوروس الحمصى أخذ قصته عن هوميروس من مصادر مصرية . والواقع أن تصديق كاتب يونانى أصبح فيها بعد أسقفاً فى تساليا لمثل هذه الخرافة يعنى عن مجلدات فى شرح مدى أثر مصر فى الفكر اليونانى ، لأنه إذا كان اليونانيون فى القرن الثالث قبل الميلاد لم يجدوا فى نفوسهم حرجاً أن يصدقوا أن شاعرهم هوميروس معلم بلاد اليونان . كان مصرياً . فلا بد أنهم لم يتحرجوا أن يعدوا مصر مهداً لتقافتهم (٤٤) .

ولم تقتصر أمثال هذه المبالغات على العصور القديمة والوسطى فحسب ، بل ظهرت من آن إلى آخر حتى القرن الماضى . وفى المثال التالى ما يدعو إلى تسلية القارى قدر ما تسليت به نفسى . ونخلاصته أن القاضى الهولندى شارلس جوزيف دى جراف (١٧٣٦ - ١٨٠٥) خصص ساعات فراغه من أعمال حياته اليومية الناشطة لدراسة الآثار . وظهرت ثمار هذه الدراسة بعد موته بقليل فى كتاب عنوانه : جمهورية السهول الإيليزية أو العالم القديم (شكل ٣٨) (٤٥) . فى ذلك الكتاب حاول ذلك العالم المدقق - بفضل كتاب تيليماك الذى تقدمت الإشارة إليه وكتاب إتلانتيكا الذى ألفه العالم السويدى أولوس روديك الأكبر (١٦٣٠ - ١٧٠٢) (٤٦) - أن يعيد تفسير قصة أصولنا الكلاسيكية من أوطا إلى آخرها . وكما جهد روديك السويدى أن يجعل هذه الأصول فى السويد .

فكذلك جهد دى جراف الهولندى . وهو يكتب بعد ذلك بقرون -- أن يجعلها فى بلجيكا . ومع شيوع هذا النوع من خطل الرأى . فإن قلة من الناس تستطيع أن تعمل مثلما عمل هذا العالمان بمثل هذا الجهد لإرساء جهود كل منهما فوق مثل هذا الأساس الثقيل . ففى رأى دى جراف أن هوميروس كان شاعراً بلجيكياً يتغنى بالبلاد البلجيكية . وكان هذا الرأى فيما يبدو واضحاً تماماً لعينيه ، ولكنه لم يبد بمثل هذا الوضوح لغيره من الباحثين . ولا سيما أولئك الذين لم ينشأوا فى أحضان بلاد فلاندرز الجميلة .

وولف وشليمان :

نستطيع بعد هذا الفاصل الوجيز أن نعود هنيئة إلى الصعوبات المنتية ومناقشاتها التى استمرت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بين العلماء من مختلف البلاد . ونتيجة لما تدرج فيه أولئك العلماء من مرانة تزداد صرامة جيلا بعد جيل . أصبحت مناقشاتهم تدريجياً كذلك أشد نقداً وأكثر صرامة . وبلغت هذه الجهود الطويلة ذروتها فى كتاب : مقدمة لدراسة هوميروس تأليف فريدريك أوجست وولف (١٧٩٥ م) . (شكل ٣٩)^(٤٧) . الذى افتتح به الدور الحديث من « مشكلة هوميروس » . أى سلسلة الشكوك فى وجود هوميروس ووحدة الإلياذة والأوديسة . مما أشرنا إليه فيما سبق ، حيث أدلينا فيه برأى متواضع .

وأود هنا أن أفرد بالذكر من بين المؤلفات العديدة الخاصة بهذا الموضوع كتاباً بالذات يتأفف منه الباحث فى فقه اللغات القديمة . وهو كتاب « مؤلفة الإلياذة » الذى كتبه صمويل بتلر (١٨٣٥ - ١٩٠٢) . وهو أحد كبار المؤلفين من الإنجليز . ومؤلف قصة إيريهون . وقصة مصير البشر . ونشر صمويل بتلر هذا الكتاب أواخر حياته (١٨٩٧ م) (شكل ٤٠) وحاول فيه أن يدل على أن الأوديسة كتبها امرأة من مدينة ترابانى فى جزيرة صقلية !

RÉPUBLIQUE DES CHAMPS ÉLYSÉES, OU MONDE ANCIEN,

Ouvrage dans lequel on démontre principalement :

- Que les Champs élysées et l'Enfer des Anciens sont le nom d'une ancienne République d'hommes justes et religieux, située à l'extrémité septentrionale de la Gaule, et surtout dans les Iles du Bas-Rhin ;
- Que cet Enfer a été le premier sautuaire de l'initiation aux mystères, et qu'Ulysse y a été initié ;
- Que la déesse Circé est l'emblème de l'Eglise élysienne ;
- Que l'Elysée est le berceau des Arts, des Sciences et de la Mythologie ;
- Que les Elysiens, nommés aussi, sous d'autres rapports, Atlantes, Hyperboréens, Cimériens, &c., ont civilisé les anciens peuples, y compris les Egyptiens et les Grecs ;
- Que les Dieux de la Fable ne sont que les emblèmes des institutions sociales de l'Elysée ;
- Que la Voûte céleste est le tableau de ces institutions et de la philosophie des Législateurs Atlantes ;
- Que l'Aigle céleste est l'emblème des Fondateurs de la Nation gauloise ;
- Que les poètes Homère et Hésiode sont originaires de la Belgique, &c.

OUVRAGE POSTHUME

De M. CHARLES-JOSEPH DE GRAVE, ancien Conseiller
du Conseil en Flandres | Membre du Conseil des Anciens, &c.

Veterum volvens monumenta Decorum,
ô Patria! ô divum Genus!

TOME



PREMIER.

A G A N D,

De l'Imprimerie de P.-F. DE GOESIN-VERHAEGHE,
rue Hauteporte, N^o. 219.

1 8 0 6.

شکل (٢٨) - صحیفۃ الننوان فی المجلد الأول من کتاب دی حراف : جمهوریۃ السہول الإبلیزیۃ

(ثلاثة مجلدات ، عت ١٨٠٦) .

THE
AUTHRESS OF THE
ODYSSEY,

PRINTED AND BOUND FOR THE AUTHOR, WHO LIVES AND RESIDES AT
MADE OF THE YEAR 1828
BY
DODD, PUBLISHER, ST. PAULS CHURCH-YARD, LONDON.

BY
SAMUEL BUTLER

APPROVED BY THE UNIVERSITY OF OXFORD AND THE UNIVERSITY OF CAMBRIDGE
IN THE YEAR 1828

"There is no other book in which a translation of the Greek
text of the Iliad and Odyssey is so fully and so accurately
given as this. It is a work of great value to the student of
the language, and one which will be found in every library
of a scholar." — *Edinburgh Review*, 1828.
John Lubbock, Esq., F.R.S.
(The printer is responsible for the accuracy of the text.)

LONGMANS GREEN AND CO
27 PATERNOSTER ROW LONDON
NEW YORK AND BOMBAY
1907

(شكل ٤٠)

شكل (٤٠) صفحة العنوان في كتاب مؤلفة
الأوديسة لصمويل بتلر المطبوع عام ١٨٩٧.
عن مكتبة كلية هارفارد .

PROLEGOMENA
AD
HOMERUM

1828
OPERUM HOMERICORUM
PRÆCA ET GENUINA FORMA
VARIISQUE MUTATIONIBUS
ET
PROBABI RATIONE EMENDANDA

SCRIPTIS
IRID AUG WOLFIIUS

VOLUMEN I

HALLÆ SAXONUM,
PUBLISSE ET CUM PRIVILEGIO
1795

شكل (٣٩)

شكل (٣٩) صفحة العنوان في المجلد الأول من
مقدمة وولف Prolegomena
(Halle a.d. Saale, 1795). عن النسخة المهداة
لجامعة هارفارد من ف . ا . وولف في ٢١ أبريل
عام ١٨١٧ . أي بعد نشرها بنحو ٢٢ سنة
وقبل أن يموت بقليل ، إذ مات عام ١٨٢٤ .

أى أن هوميروس الثاني كان — بالتأكيد — امرأة . وليس في أدلة صمويل
بتلر ما هو مقنع ، ما عدا الأدلة العامة منها ، وهذه يؤيدها شعور كل قارئ
بصير ، وهو أن جو الأوديسة الأدبي أهدأ وأقرب إلى الحياة العائلية ، بل
دعنا نقل أكثر أدلة ، من جو الإلياذة . ولم يستطع بتلر أن يدلل على أكثر
من ذلك ، وهذا كله واضح كل الوضوح .

ومرجع ذلك أن صمويل بتلر كان هاوياً ذا عبقرية هوائية يدرس أشعار
هوميروس لغرامه بدرسها ، لا لشيء آخر ، كما فعل كثيرون من الإنجليز
وما زالوا حتى العصر الحاضر . وتطلب صمويل بتلر من ذلك ترويحاً عن نفسه
وتهدياً لروحه . على حين كان علماء فقه اللغة اليونانية في مختلف البلاد يعملون

بما أوتوا من علم غزير ومقدرة ذهنية فحلة . في بحث النصوص الهومييرية سطرأ . سطرأ . وكلمة كلمة ، يخللونها ، ويرتبونها . ويوبونها . ويقبلونها على كل وجه ونهج مستطاع . وبينما هم في شغل شاغل على النحو السابق ، ينافس بعضهم بعضاً . ويتنازعون غالباً حول هذه الكلمة أو تلك . دارت برأس أحد رجال الأعمال المتقاعدين - أعني من الدخلاء - فكرة بسيطة هي أن يقابل بين كلمات هوميروس وبين الآثار . وكان علماء فقه اللغة يعملون ليلاً ونهاراً في مكنتابهم ، تحيط بهم المعاجم والطبعات والشروح والمذكرات التي خلفها أسلافهم وظلت في زوايا النسيان حتى علاها التراب . ولم يكن من نهاية لبحوث أولئك العلماء الذين عكفوا على عملهم غالباً في حرارة ، وأحسوا بأن وقتهم ثمين . فلم يكن لديهم متسع للمغامرة أو رغبة في السفر والتنقل بين مظان البلاد التي تصفها أو تشير إليها الأشعار الهومييرية . وتساءل أولئك العلماء فضلاً عن ذلك . ألم يكن هوميروس نظام قصص ؟ هل هناك أدنى أمل في العثور على الآثار للألوه والأبطال الأقدمين ؟ غير أن هينرش شليمان (١٨٢٢ - ١٨٩٠ م) اعتقد أن هذه الآثار موجودة . وكان مرجع هذا الاعتقاد جهله^(٤٨) وبساطته وحماسه وإيمانه . بل بلغ به هذا الاعتقاد مبلغ اليقين ، حتى إنه أعلن استعداداه بأن يقامر بأمواله وحياته للتدليل على صحته ، إذ تراءى له أن أشعار هوميروس لم تنسج من الهواء ، وأن لها لا بد أساساً من الواقع ، إنه سوف يذهب ليكشف عن ذلك الأساس . وزار شليمان بلاد اليونان وطروادة لأول مرة عام ١٨٦٨ م . وبدأ حفرياته في إتاكا تلك السنة . وصرف معظم السنوات العشرين التالية على الحفر في طروادة وموقنای وأرخومينوس وتيرنس . وهو الرائد الأول حقاً في ميدان علم الآثار اليونانية فيما قبل التاريخ . لأنه أول من قام بالحفر في شيء من الترتيب والنظام . ومع ما طرأ على طرق شليمان من تحسينات كثيرة . فلا يزال هو المؤسس لهذا النوع من البحوث^(٤٩) . وأول من أدخل تحسينات على طريقه هو مساعده وخليفته ويليئم دريفلد (١٨٥٣ - ١٩٤٠) .

والخلاصة أنه كما بدأ وولف عهداً جديداً في البحوث اللغوية ، فكذلك بدأ شليمان عهداً جديداً في التفسير بوساطة الآثار ، وجعل من المستطاع شرح أشعار هوميروس شرحاً جديداً كمرآة للعصر الموقيني . على أن هذا لم يؤثر في استجلاء مشكلة من المشاكل الهوميرية ، وهي التي تساور الباحث العادي أكثر من غيرها - أى معرفة من هوميروس . ولكنه من ناحية أكثر عمقاً بعث شخصية هوميروس (Homeros aneste) على أنه المؤلف أو الناشر لأشعار تشيد بفجر الثقافة اليونانية . ومع هذا لن نعرف حقيقة هذا المؤلف (أو المؤلفين الاثنين أو الأكثر عدداً) . ولا يعيننا ذلك في كثير ، فلدينا القصيدتان الإلياذة والأوديسية كاملتان فيما يبدو . وهاتان القصيدتان كتزان خالدان لا تستطيع قيمتهما إلا أن تزيد وتنمو في المستقبل .

هسيودوس :

دلل الكاتب شادويك وزوجته في مؤلفهما الباهر الذى عنوانه : نمو الأدب ، أن الأدب القديم في أمم عديدة لا يهتم بالأقصوصة والحرافة فحسب . بل يمتد كذلك إلى موضوعات أخرى . فالإلياذة والأوديسية هما المثالان البارزان للشعر الحماسى في الأدب العالمى ، ولكن أوائل الشعراء المتجولين اليونانيين كانوا ينشدون من حين إلى آخر قصائد في موضوعات أخرى غرضها التعليم أو ضرب الأمثال (الأقوال الحكيمة والألغاز) أو الكهانة (العرافة والأخبار بالغيب) . ولا غرابة في ذلك ، وإلا فما معنى وجود الشعراء المتجولين ، ولم نجدهم في جميع بقاع الأرض ؟ السبب بسيط وهو أن الناس تشرفوا دائماً أن يكونوا على شيء من المعرفة ، من نوع أو من آخر . ولم تكن أخبار الأفراد أو العائلات أو القبائل ، بل العيون لدى أذكياهم طويلا ، بل رغبوا في أن يتسع أفقهم . ولم يستطيعوا إلا أن يسألوا أنفسهم أسئلة مثيرة كثيرة . « لماذا يفعلون ما يفعلون ؟ » « من أين أتوا وإلى أين هم صائرون ؟ » « لماذا يحجون ؟ » « لماذا يكون هذا العالم

على ما هو عليه من الأحوال ؟ » وهذه الأسئلة وأمثالها تولد الأساطير والكونيات ، وهي كذلك تخلق العلوم . وتاريخ العلوم إن هو في الأكثر إلا تاريخ الأجوبة المتلاحقة التي جاءت بها الفرائح للرد على هذه الأسئلة .

واكتفى الناس في تطلعهم إلى معرفة الوقائع التاريخية بالأساطير التي بعثت فيهم وعياً بآرائهم وقوميتهم وعلمهم بمقومات الإنسانية وشرفهم . وهذا حسن لولا أنه ترك أسئلة هامة كثيرة دون إجابة . لا الأسئلة العويصة التي أشرنا إليها فيما سبق فحسب ، بل أسئلة أكثر سهولة وبساطة وأكثر ارتباطاً بالحياة العمالية والحاجة . مثال ذلك أن حاجة الزارع إلى المعلومات الخاصة بالزراعة متعددة النواحي ، وهذا القول نفسه منطبق على التجار والصناع . ثم إن الناس جميعاً في حاجة إلى هداية خلقية واجتماعية . مثلما يأتي إليهم عن طريق الأمثال السائرة ، فكل مثل سائر^(٥٠) قطعة من حكمة شعبية بالغة المستوى معروفة الأصل ثابتة الصلاحية للذبيوع والانتشار ، مثال ذلك قولنا : « من زرع شراً حصد شراً أكبر »^(٥١) فهذا قول سهل الحفظ والوعى ، ولا سيما إذا جاء في عبارة موزونة أو صيغة مسجوعة قافيتها ، أو متأللة حروفها الأولى ، وهو أيضاً سهل التردد فإذا ساقه قائل على سبيل الحكمة في دائرة أسرته أو في السوق العامة حظى بقسط شخصي من الثناء على حكمة قبيلته كلها (فهو يستحق هذا الثناء لأنه يساعد على حفظ تلك الحكمة وعلى تعليمها) .

وارتبطت أحسن الأشعار التعليمية اليونانية باسم هسيودوس الذي عاش بعد هوميروس بزمان قليل ، ولعل هذا هو سبب وضوح شخصيته أكثر من شخصية سلفه . وهسيودوس أول شاعر يوناني استعمل ضمير المتكلم وأفصح عن عزمه تبليغ رسالة شخصية : وهي « أن يخبر عن الأشياء الحقيقية »^(٥٢) . وهسيودوس مثل سلفه هوميروس أصله من الساحل الآسيوي . مع احتمال أن هوميروس من أبناء إيونيا ، على حين أن والد هسيودوس سكن مدينة كوى وهي ميناء في إيوليس (إلى الشمال من إيونيا) ثم حمل الفقر والده أن يرحل عن كوى ،

وأن يبحث عن حظه في بلد آخر ، فعبر البحر الإيحيى واستقر في مدينة أسكرا من أعمال بيوتيا على ساحل بلاد اليونان نفسها . ومن المحتمل أن ابنه : هسيودوس وبرسيس ولدا في هذا الموطن الجديد ، حيث لاريب كانت نشأتهما . واشتغل الأخوان كأبيهما بالزراعة ، لكن شاءت الأقدار أن تختار لهما غير ذلك ، إذ غدا برسيس لكعاً لا خير فيه . على حين لم يقنع هسيودوس بعمله في الزراعة ، بل عكف على نظم الأشعار والإنشاد والوعظ استجابة لنداء الفن . وفي أواخر حياته رحل هسيودوس إلى بلدة أوبينوى في إقليم لوكريس ، حيث مات قتيلاً (٥٣) .

ومن الواضح أن لا مجال للشك في شخصية الشاعر هسيودوس ، ونستطيع أن نفترض أنه عاش بعد هوميروس الثاني بزمن قليل ، أعنى حول نهاية القرن الثامن . وأنه من أهل بيوتيا . ولعل هذا هو سر الفجاجة التي نقابلها في بعض شعره بالقياس إلى شعر هوميروس (٥٤) . والقصيدتان الأساسيتان اللتان تنتسبان إليه والباقيتان إلى وقتنا هذا ، أعنى « الأعمال والأيام » و « أصل الآلهة » مقالان ممتازان في بابهما ، ولكن ينبغي أن نلاحظ أن كليهما قصير نسبياً : ٨٢٨ بيتاً و ١٠٢٢ بيتاً . ولا غرابة في ذلك ، فالشعر الذي يستهدف التعليم وضرب الأمثال لا مجال فيه للإطالة والاستطراد ، وهو ما اتسع له أسلوب الإلياذة القصصى . ذلك أن القصص يدركون تمام الإدراك أن المستمعين يتوقون إلى الإسهاب في القصص (مثال ذلك : وصف المعارك والولائم) وإلى التريد المثير ، وأنهم يحبون أن تمتد الحكايات الدرامية امتداداً مثيراً لمستزيد ، وعلى العكس من ذلك أهل الزراعة الذين يريدون النصيحة الموجزة ، فتكون الأمثال التي يترامى فيها أدبهم الشعبي مختصرة نافعة .

قصيدة الأعمال والأيام تأليف هسيودوس :

تنقسم قصيدة الأعمال والأيام Erga cai hēmerai (شكل ٤١) التي ألفها هسيودوس إلى أربعة أقسام : (١) عظة لأخيه الأصغر برسيس ،

(٢) مجموعة من القواعد الزراعية والملاحية . (٣) مبادئ أخلاقية ودينية ،
(٤) تقويم الأيام السعيدة والمشتومة . ويحتوي القسم الأول من هذه الأقسام على
قصص رمزية وحكايات تشرح أحوال الناس وقيم الطبقة القلبية ، وفي الحكاية
الأولى من هذه التصص الرمزية قارن هسيودوس بين التنافس النافع وبين التنافر
الصاحب . وتأتى بعدها قصة بانديورا التي تبين أصل الشر . وأنه لا فرار من
الكدر والعمل (قارن الحكاية التي توجد في سفر التكوين والتي لها عين المعزى) ،
كما توضح حكاية (ainos) الصقر والبلبل شرور القسوة والظلم . وأكثر ما يسترعى
انتباهنا من هذه القصص كلها قصة العصور الخمسة للعالم^(٥) وهى : عصر
الذهب أى عصر السلام والكمال ، وعصر الفضة وهو أقل من عصر الذهب
صفاء ونبلا ، وعصر البرونز وهو العصر الرابع الذى يشير على ما يظهر إلى النهضة
المينوية التى ألهمت ذكرها الحبيدة أشعار هوميروس ، وأخيراً عصر الحديد ،
وهو العصر الحالى ، عصر الحزن والبغضاء والتناحر ، ويبدو من ذلك أن هسيودوس
عاش فى عصر يشبه عصرنا الحاضر . إذ تأمل المفكرون ألوان الدمار والشقاء
والفوضى التى تعقب الحروب والانحطاط الخلقى . ومالوا فى كثير من خيبة الأمل
إلى القول : « بأن الدنيا تصير كل يوم من سيء إلى أسوأ . وأنها تسعى حتماً إلى
نهاية » . وهذا النوع من التشاؤم الاجتماعى يطن فى آذاننا كآية من مظاهر عصرنا
الحاضر ، لأن بعض مواطنينا فى حالة تشاؤمية مماثلة . على أن أشباها مقارنة
لهذا النوع حدثت فى أزمنة أكثر قدماً . مثل أزمنة النشيد السوميرى الذى أشرنا
إليه فيما سبق فالفكرة القائلة بأن كل شيء ينحدر من سيء إلى أسوأ وأن « العالم
صائر إلى الشيطان » متواترة فى كل الأزمنة ، أو بالأحرى هى فكرة لا بد أن
تعود إلى الظهور كلما اضطرب الميزان الاجتماعى اضطراباً عنيفاً بسبب الحروب
أو الثورات أو النوازل الأخرى . وتنطبع هذه الفكرة فى ذهن رجل يسير جسمه
وعقله تدريجياً إلى الانحلال . أو ينقصه الصبر على التحرر التدريجى والعناد
(الظاهر أو الخفى) الذى يمشى عليه الحيل الحديد . وذلك بغض النظر عن وقوع

ΗΣΙΟΔΟΥ ΤΟΥ ΛΣΚΡΑΙΟΥ ΕΡΓΑ
ΚΑΙ ΗΜΕΡΑΙ -

οὔσαι περιίνθηρ ἄωδ' ἄσαι
κλῆφουσαι
Διὸς δ' ἴ, ἰγρίωϊτε οφίτρην πατιρ
ὕμφουσαι.

ὄρτι δ' ἰθροτό, ἀρδρῖο ὁμῶσ ἀφαῖτε φατοῖτε
ρήνοϊτ ἀρρητοῖτε . Διός μιλῆσιο ἴπαι .
ῤῥα μίρ γαρ θριαῖ . ῤῥα δὲ θριαῖ ὄντα χαλῖωϊτ .
ῤῥα δ' ἀρίζηλον μινύτφ . καὶ ἄδ' κλον αἰζφ .
ῤῥα δ' ἴ ἰθύρφ σολῖορ καὶ ἀγῆροα κάρφφ .
Ζηούψι θρεμίτκς ὅς ὑπρτατα δῶματα κνῖφ .
Κλῦθι ἰδ' ὠρ αἰῶρτε δ' ἴκκ δ' ἴθυρε θίμιασ
Ἰύρμ . ἰῶ δ' ἴκκ πῖρον ἰτῖτυμα μυθκσαμ κν
ὄν ἄρα μῦρον ἴκκ ἰρίδ' ὠρ γῖρος . ἀλλ' ἰπῖ γαῖαρ
ἔσοι δῶφ . τῆρ μῖν κκ ἰπαμῖαφ κν ῥοῖσαι .
ἢ δ' ἰπῖρω κκτῖ . Διαδ' ἀρδ' ἰχα θυμῶρ ἰχουσιρ
Ἡμῖρ γαρ πόλιμῶρτκ κακῶρ καὶ δῶρμ οφίλλφ
Σχετλῖν . οὔτκ τῆρ φιλῖφ βροτ ὅς ἀλλ' ὠδ' ῥαῖκκς
ἄθαράτωρ βουλῶσιρ ἴριρ τιμῶσι βορῖφκ
Ἰῦρ δ' ἰτίρμ προτίρμ μῖν ἔδ' ῥα τομῦξ ἰρεβερῖκ
θῶκ δ' ἰκκ κροκῖδ' κς ὕψιζος αἰθῖρ κν ῥοῖσαι
Γαῖκτ ἰγρίζησι καὶ ἀρδ' ῥῶσι κκτῖ ὄν ἀμῖρ
ἢτε καὶ ἀπάλαμῶρτκ ὁμῶσ ἰπῖ ἴρβον ἰῖφφ .
ἔκκ ἰτίρμ γαρ τῖστκ ἰδ' ὠρ ἴρβον κκτῖ ζαρ
Πλούσιον ὅς ἀσῶδ' φ μῖν ἀρέμμερ κν ἰδ' ἰ φυτιῦφκ .
Ἰῖκκτ ἰῦ θῖοθω . Ζηλοῖ δ' ἰτῖ ἴφτῶρ γφτῶρ .
ἔκκ ἀφῖρον ἀσῖνδ' ὁμῖ ἀφθ' κκτῖ ἴρκς ἢ δ' ἰ θροτοῖσι .

ε

شكل (٤١) - الطبعة الأولى Princeps للأعمال والأيام مع رعويات ثيوكرتيوس (ميلان
حوالي ١٤٨٠) ، عنوان الأعمال والأيام ورقة ٢٢ أ . من النسخة المحفوظة بمكتبة هنتجون

الحروب أو الثورات .

ومن الواضح أن هسيودوس نظم قصيدته هذه بسبب عدم انقياد أخيه وجهله ،
وأنه أراد بها أن يثقفه وأن يخجله كي يسير في طريق الأخلاق الحميدة ، وأن

يرفع من روحه المعنوية . (ومن المحتمل أن جهوده ذهبت عبثاً) . فالجزء الأول من قصيدته مقدمة ميثولوجية الغرض منها أن يبعث في قلب برسيس حب التقاليد والرغبة في العدالة وأن يعمل كأى إنسان . أما الأجزاء الأخرى فلا تحتاج إلى شرح طويل ، فقواعد الفلاحة والملاحة^(٥٦) قراءتها أسهل من تحليلها . فانتقطف منها أبياتاً قليلة ، ولنبدأ بالأبيات الافتتاحية .

وعندما تطلع الثريا ، بنات أطلس في السماء ، ابدأ موسم حصادك . وابدأ الحرت عندما يملن إلى الغروب . إنهن يختفين أربعين يوماً وليلة ويظهرون مرة أخرى عندما تدور السنة دورتها ، أى عندما تشخذ منجلك لأول مرة . هذا هو ناموس السهول ، وناموس الذين يعيشون بالقرب من البحر ، والذين يسكنون إلى الأرض الحصيبة ، من الوديان الصغيرة، والوهاد الخضراء بعيداً عن أمواج البحر ، — واخلع ملابسك عندما تبذر ، وعندما تحرت ، وعندما تحصد إن كنت تبغى أن تحمل إلى دارك كل ثمار ديميثير في الوقت الملائم وأن ينمو كل صنف في حينه ، وإلا فربما تصبح فيما بعد فقيراً محتاجاً تذهب إلى بيوت الآخرين تسألهم إحساناً ، ولكن دون جدوى كما جئت إلى سابقاً . إني لن أعطيك أكثر مما أعطيت ولن أكيل لك قدرأ آخر . أيها الجاهل برسيس . اعمل العمل الذى كتبه الآلهة على الناس ، لكلا تضطر أنت وزوجك وأطفالك إلى البحث عن طعامك عند جيرانك وفي قلبك لوعة ، وهم لا يعبرونك التفاتاً . ومن المحتمل أن تنجح معهم مرتين أ ثلاث مرات ولكن إن ثقلت عليهم أكثر من ذلك فلن ينجح مسعاك . وسيذهب كلامك كله سدى وسوف لا يكون لتلاعبك بالألفاظ من فائدة . أجل إني أمرك أن نجد وسيلة لأداء ديونك والابتعاد عن المسغبة .

ثم ما يأتي :

ولكن عندما تظهر أزهار الخرشوف ويجاس الصرصور يترنم فوق شجرة ويرسل أغانيه باستمرار من تحت جناحيه في فصل الحر المرهق ، حينئذ تكون المعزى

أسمن ، والنيبذ أحلى ، والنساء أشبق ، ولكن الرجال أضعف لأن نجمة الشعرى تجفف الرأس والركبتين وتضمر الجلد بتأثير الحر . دعنى عند ذلك آوى إلى صخر ظليلة واسقنى من نيبد بلبس وأعطنى جبنا ولبنا من عنز جف ضرعها ، مع شريحة لحم من عجلة شابة مرعاها الغابة ، ولحم جدى رضيع ، دعنى أيضاً عند ذلك أجلس فى الظل وأشرب النيبد الصافى ، حتى إذا أخذت حاجتى من الطعام حولت رأسى نحو نسيم الشمال الليل وصببت من الينوع الذى يجرى ماؤه نقياً قرباناً من الماء ثلاث مرات ، ثم صببت الرابعة قرباناً من النيبد ^(٥٧) .

من الواضح أن هذا كله ليس من روح إقليم بيوتيا ، إذ كان هدف هسيودوس المباشر أن يشرح لأخيه كيف يجنى ربحاً من عمله وكيف ينبجو من الفقر ، لكن غلبته الشاعرية الكامنة فى موضوعه أو بعبارة أخرى تغلبت العبقرية الشاعرية على الأغراض العملية الوعظية من قصيدته . وهزت مشاعره المناظر الخلابة التى أحاطت به فرفعته هنيهة إلى مستوى أعلى ، وهو بذلك رائد الشعراء الرعاة الذين ظهروا فيما بعد ^(٥٨) .

وكان من المقبول المسلم به حتى عام ١٩٥١ أن قصيدة الأعمال والأيام التى نظمها هسيودوس أول مثل من أمثلة التقويم الزراعى فى الشعر . لكن هذا ليس يعد صحيحاً لأن صمويل نوح كرامر مدير المتحف الجامعى التابع لجامعة بنسلفانيا كشف فى نيبورلوحه مسمارية سومرية يرجع تاريخها إلى حوالى ١٧٠٠ وفك رموزها فإذا هى تبدأ بما يأتى : « فى سالف الأيام أعطى مزارع ابنه هذه التعليمات » ، وهى تحتوى على ١٠٨ أسطر وتشرح أعمال المزارع طول العام . ونشر كرامر لهذه اللوحة . ترجمة مبدئية عنوانها : التقويم الزراعى السومرى ^(٥٩) وأرجو من القارئ هنا أن يلاحظ أن الفلاح السومرى المجهول الذى كتب هذا النص أو أوحى به عاش قبل هسيودوس بنحو ألف سنة .

نعود إلى هسيودوس فنقول إن القسمين الأخيرين من قصيدته قصيران جداً (٧٠ بيتاً و ٦٤ بيتاً) . أما القسم الثالث فيحتوى على نصائح مألوفة فى

الزواج والسلوك الحسن في مختلف الأحوال . وبعض هذه النصائح يبدو نافعا للغاية (آداب التبول omichein)^(٦١) وهذا القسم يضم خزعاتلات نهم علماء الأساطير مما لا يتسع المجال هنا للإفاضة فيها . وأما المبادئ التي يحتوى عليها القسم الرابع ، وهى التى تمس الأيام السعيدة والمشئمة ، فكلها أوهاام طبعاً . ولكن ينبغى أن نذكر أن أوهااماً مشابهة تحكمت في أعمال المزارعين حتى أمس القريب ، وأنها ما زالت تقوده في بلاد كثيرة حتى العصر الحاضر ، وأن بيننا نحن أناساً يزعمون أنهم عقلياً منحررون ، وهم يخشون « يوم الجمعة الثالث عشر » . أما قصيدة هسيودوس فتنهى بهذه الأبيات :

« هذه الأيام نعمة كبرى على الناس على وجه الأرض ، لكن بقية الأيام متغيرة مشئمة لا تأتى بخير . ويختلف الناس في مدح هذا اليوم أوذاك ، لكن قليين يعرفون طبائعهم . فاليوم في بعض الأحيان زوجة أب ، وفي البعض الآخر أم رؤوم ، والرجل السعيد الموفور الحظ في هذه الأيام هو الذى يعرف هذه الأشياء ويقوم على عمله دون أن يغضب الآلهة الخالدين ، ويعرف زجر الطير ، ويبتعد عن تعدى الحدود »^(٦٢) .

ومن هذه العبارات يتضح أن المزارع في عصر هسيودوس أحسن بكثير من الأسرار التي استغلقت عليه وأحاطت به وهددت كيانه ، وأيقن أنه تحت رحمة العناصر الطبيعية والحظ كل يوم من الأيام ، فلم يكن يكفيه أن يبذل جهده في عمله ، بل عليه أن يتواضع وأن يخشى كل خاشية .

ومن مؤلفات هسيودوس التي ضاعت قصيدة في علم الفلك لم يبق منها إلا قطع قليلة ، وهى تصف أهم المجموعات النجمية وتشرح أصول أسائها ، أعنى الأساطير الخاصة بها . وتذكر هذه القطع القليلة التي وصلت إلينا نجوم الثريا والتوابع والذب الأكبر ، والجوزاء ، وهى أقدم نصوص من نوعها في الأدب اليونانى .

قصيدة أصل الآلهة . هسيودوس الثانى :

أما القصيدة الأخرى التى وصلت إلينا ، أعنى أصل الآلهة (ثيوجونيا) فهى ملخص للميتولوجيا ، أى تاريخ الآلهة وأنسابهم . مما لا نقف عنده طويلا . وأتبعها هسيودوس فى الأصل بقصيدة أخرى تحتوى على قائمة بالنساء والشبهات coiai ، أى قائمة ببطلات كان الشاعر المتجول يقدم كلا منهن بعبارة e hoic ومعناها مثلها . وهؤلاء النساء هن الواسطة الطبيعية بين عالم الآلهة وعالم البشر ، لأن الأبطال الذين كانوا يعدون من نسل الآلهة جاءوا إلى هذه الحياة من أمهات من البشر . ولذا كان من الضرورى بعد أن أوضح هسيودوس أنساب الآلهة أن يتحدث عن النساء اللاتى أحبهن الآلهة وأنجبوا منهن الأبطال قادة الناس فى هذا العالم . وهذا النوع من التفكير يساعد على تعليل رياسة الأمم فى المجتمع البدائى ، على أنه ينبغى أن أترك هذا الموضوع للباحثين فى علم الإنسان .

وفى نظر أى رجل يتأثر بالميتولوجيا (وهذا وصف ينطبق على كل يونانى) يتصل ميدان أنساب الآلهة بميدان علم الكون ، لأن أصل الآلهة وأصل العالم وعملية الخلق جملة وتفصيلاً ممتزجة على نحو لا يمكن فصله . ويوضح ذلك قول هسيودوس كيف أتيح له أن يحيط بالأسرار الخفية التى يفصح عنها ، إذ ينبتنا فى المقدمة ^(٦٢) أن بنات زيوس العظيم « قطعن عوداً وأعطينه لى ، غصناً متيناً من الزيتون ، غصناً عجيباً ، ثم نفثن فى صوتاً قدسياً لأشيد بالأشياء التى ستأتى ، وبالأشياء التى مضت فى سالف الزمان » ^(٦٣) . وكان وضع الماضى المجهول على قدم المساواة مع المستقبل أمراً طبيعياً فى شعر هسيودوس ، فالعرف الصادق مثل ثيستور بن كالحاس ^(٦٤) يعرف « الحال والمستقبل والماضى » . والآلهة الأزليون لا يشعرون بالزمن . ونذكر هنا كذلك أن إيزيس تقول عن نفسها فى النقش الذى يوجد على معبدها فى صا الحجر (سايس) : « أنا كل شىء كان فى الوجود ، وكل شىء موجود الآن ، وكل شىء يوجد مستقبلاً على

الإطلاق ، ولم يكشف عنى بشرق ط « (٦٥) .

ويتفق علماء فقه اللغة على أن القصيدتين الأساسيتين من أشعار هسيودوس يرجع تاريخهما إلى ما بعد هوميروس ، على الرغم من أن كلا منها تحوى عناصر هى ، أوروبما تكون ، معادلة فى القدم لأى شىء موجود فى الأوديسية ، وحتى فى الإلياذة . وهم يميلون إلى وضع قصيدة أصل الآلهة إلى زمن لا حق يحتمل أن يكون نحو قرن من الزمان ، بعد قصيدة الأعمال والأيام . وعلى هذا الفرض ترجع قصيدة أصل الآلهة إلى مؤلف آخر نستطيع أن نسميه هسيودوس الثانى (٦٦) .

أسلوب هسيودوس ورواية أخباره وأشعاره :

على الرغم من أن قصيدة الأعمال والأيام تحتوى على أبيات جميلة فأسلوب هسيودوس أقل فى الجودة عادة من أسلوب هوميروس . وربما كان مرجع هذا أن الموضوع لا يسلس للجمال الشعرى . وربما أن سببه هو الإعجاب المتناهى بعظمة هوميروس والنجاح الذى ناله بين الشعب . ومن المعقول أن نتصور أن شهرة الإلياذة والأوديسية (عندما بلغت هاتان الملحمتان أوج كمالهما) أعجزت الشعراء الآخرين ، ومنهم هسيودوس ، عن الوصول إلى مثل هذه الشهرة ، كما حدث عندما صرب ميخائيل إنجلو ورفائيل حولهما فضاء من الفن لم يستطع أحد من الفنانين اللاحقين أن يقرب منه .

أما النقد الرئيسى الذى يستطيع الباحث أن يوجهه إلى هسيودوس فهو أنه لا يلحق بهوميروس فى السرعة والسلاسة ، وأن كثيراً من أبياته يتلو بعضها فى توقف ونغم مرتفع متقطع . وربما كان هذا فى كثير من الأحيان أمراً لا يمكن تلافيه . وإنى أشعر باحترام للمؤلف الذى يشب على الفور من فكرة إلى فكرة أخرى إذا لم تكن هناك رابطة حقيقية بين الفكرتين أعظم من احتراى للمؤلف الذى يخلق انتقالات غير طبيعية فى كثير من الصعوبة . فأسلوب هسيودوس مألوف طبيعى ، ولكنه تمتع ، ومزاجه صارم لا رومانتيكية فيه . ولكن ماذا

تريد ؟ كان هسيودوس مريباً ومعلمًا بمعنى أكثر حرفية من هوميروس . إن الناس لم يقبلوا عليه بمثل الرغبة التي أقبلوا بها على المنشد الذي اكتسب إذ ذاك عظمة الأبطال .

لا عجب إذاً أن كانت رواية أشعار هسيودوس وأخباره أقل جاذبية وانتشاراً من أشعار هوميروس وأخباره . وفي العصر الحاضر يعرف مائة من الناس أشعار هوميروس . مقابل فرد واحد يعرف أشعار هسيودوس . وأكبر ظني هكذا كانت الحال دائماً . على أنه يبدو أن قصيدته الثمانية أى قصيدة أصل الآلهة . كانت أول ما استرعى الالتفات ، إذ شرحها زينون مؤسس الفلسفة الرواقية . وهو من مدينة إكتيوم (٤ - ٢ ق . م .) . وقام على نشرها زينودوتس من مدينة إفسوس (٣ - ١ ق . م .) ، وأرستوفانيس من مدينة بيزنطة (٢ - ١ ق . م .) . وأول من اهتم بقصيدة الأعمال والأيام من علماء فقه اللغة فهو هوديونيسيوس ثراكس (٢ - ٢ ق . م .) . ومن الغريب جداً أن النص اليوناني لهذه القصيدة طبع قبل النص اليوناني لأشعار هوميروس بما يقرب من عشرين .

والخلاصة أن هسيودوس لم يعاوده النسيان . وما فتئت أشعاره تثير الوجدان ، لأنه عاش قريب الصلة بالأرض والحياة الدنيا ، وشرح القانون الأساسي لبني البشر ، وهو الحاجة إلى العدالة والعمل الشريف . وهذا القانون لم يبطل ولن يبطل يوماً من الأيام . ولا تزال نصيحته الصارمة قابلة للتطبيق ، ولا تزال بعض صفاته الريفية تبعث الدفء في القلوب .

مذكرات توضيحية للمراجع

هوميروس . ندين بأول طبعة للنص اليوناني للإلياذة والأوديسية معاً إلى ديمتريوس خلقوندليس ، والصفحة الأخيرة من هذه الطبعة مؤرخة افلورنسة ٩ ديسمبر ١٤٨٨ . لكن هذه الطبعة لم تتم قبل ١٣ من يناير ١٤٨٩ . انظر الصورة التي نشرناها في هذا الفصل لصفحة من نسخة في المكتبة العامة بمدينة بوسطن بالولايات المتحدة . وفي فهرس المتحف البريطاني للطبعات الأولى (المجلد السادس ، ص ٦٧٨) وفي :

Emile Legrand, *Bibliothèque hellénique* (Paris, 1885), vol. 1, pp. 9-15.

فقرات تصف هذه الطبعة الأولى من هوميروس .

أما طبعات الإلياذة . فأولها . Walter Leaf (2 vol.; London, 1886-1888 .
1900-1902).

وثانيهما : Jan Van Leeuwen (2 vol.; Leiden, 1912-13).

وتوجد طبعة يونانية — إنجليزية قام بها : Augustus Taber Murray in the
Loeb Classical Library (2 vols.; London, 1924-25).

وطبعة يونانية — فرنسية قام بها : Paul Mazon in the Collection des
Universités de France (4 vols.; (Paris, 1937-38).

وتوجد كذلك طبعة أمريكية : George Melville Bolling, *Ilias Athenie* —
nsium. The Athenian Iliad of the sixth century B.C. (524 p.; New
York : American Philological Association, 1951).

وهي محاولة لتحقيق نص بيسيستراتوس ، وقبل ولف ما يقرب من ١٠٠٠
من ١٥٦٩٣ طبعت هنا في أسفل الصفحات ، انظر هامش ٢١ .

أما طبعات الأوديسية ، الكتب ١ — ١٢ فنشرها W. Walter Merry
James, Riddell (أكسفورد ، ١٨٧٥ ، ١٨٨٦) ، والكتب ١٣ — ٢٤
نشرها David Binning Monro (أكسفورد ، ١٩٠١) ، والكتب ١ —

٢٤ نشرها Jan Van Leeuwen (ليدن . ١٩١٧) ، والأوديسية المطبوعة بحروف روبرت بروكتور على ورق موريس في مطبعة جامعة أكسفورد في ١٩٠٩ كتاب جميل جداً . وتوجد طبعة يونانية - إنجليزية في مكتبة لويب الكلاسيكية قام بها A.T. Murray (مجلدان ، لندن ، ١٩١٩) ، وطبعة يونانية - فرنسية قام بها Victor Bérard في مجموعة الجامعات الفرنسية (ثلاثة مجلدات ، باريس ، ١٩٢٤) .

هسيودوس . الطبعة الأولى princeps للأعمال والأيام مع رعويات Eidyllia ثيوكريتوس قام بها Bonus Accursius في ميلانو بدون تاريخ (بين ١٤٧٨ و ١٤٨١ ، حوالي ١٤٨٠) . صحيفة العنوان للأعمال (ورقة ٣٣ أ) التي نشرنا صورة حصلنا عليها من النسخة المحفوظة في مكتبة Huntington . الطبعة الأولى لكتابي هسيودوس مع رعويات ثيوكريتوس ومؤلفات أخرى قام بها Aldus Manutius (في البندقية ، فبراير ، ١٤٩٥ ، ١٤٩٦) . هاتان الطبعتان الأوليان مذكورتان في فهرس الطبقات الأولى في المتحف البريطاني (المجلد السادس ، ص ٧٥٧ ، المجلد الخامس ، ص ٥٥١) . طبعة يونانية - إنجليزية لهسيودوس مع مزامير هوميروس والهوميديات Homeric نشرها Hugh G. Evelyn-White مكتبة لويب الكلاسيكية ، لندن ، ١٩١٤) .

سوف يفرح محبو الكتب بطبعة الأعمال والأيام في اللغة اليونانية والفرنسية ، وهي الطبعة التي قام بها مازون بحروف جارموند على يد Edouard Pelletan باريس ، ١٩١٢ وفيها صور أخذت من لوحات خشبية حفرها Emile Colin ومقال طويل كتبه أناتول فرانس . هذا الكتاب آخر ما طبعه Pelletan . وسميت حروفه باسم كلود جارموند (توفي ١٥٦١) ، وهذه الحروف هي التي استخدمها Robert Estienne (١٥٠٣ - ١٥٥٩) في طبعاته اليونانية بعد ١٥٤٤ ، تسر الناظر ، لكنها صعبة القراءة لكثرة حروفها المتصلة ولا تزال ثلاثة بنوط منها موجودة في المطبعة الأهلية بباريس .

التعليقات

(١) من الغريب أن لفظ (homeros) في اللهجة الكومية يؤدي نفس المعنى الذى يؤديه لفظ (typhlos) أى أعمى. ومن ناحية أخرى يعنى لفظ (homereua) في اللهجة الأيونية ما يعنى لفظ (podegeo) أى يقود أو يرشد ، وعلى ذلك ربما يكون الاسم نعتاً جسياً أو عقلياً للمؤلف ، كما لو قيل « الضرير ، « الهادى » ، (الشاعر) .

(٢) أزمير ورودس وكولوفون وسلاميس وخبوس وأرجوس وأثينة ، هذه أسماء تشير الاهتمام ، ومن الملحوظ أن أكثرها أيونى ، وأن أكثر لهجة هوميروس أيونى .

(٣) ولا سيما الجهد العظيم الذى قام عليه اثنان اسمهما شادويك وهما هكتور مونرو وشادويك وزوجه نوراً كرشوشادويك في كتابهما الذى عنوانه : Hector Munro Chadwick and Norah Kershaw Chadwick, The growth of literature (3 vols.; Cambridge : University Press, 1932-1940) Isis 29, 196 (1938) vol. 1, (1932).

ويبحث المجلد الأول (١٩٣٢) في الآداب الأوربية القديمة ، والمجلد الثانى (١٩٣٦) في الآداب الروسية والبيوغوسلافية والهندية والعبرية ، والمجلد الثالث (١٩٤٠) في الشعوب التاريخية والبولينيزية والسى دياك والشعوب الأفريقية ، فضلاً عن مبحث عام ، انظر أيضاً :

Solomon Gandz, «The dawn of literature,» Osiris 7, 261-515 (1939).

(٤) عدد العبارات والأبيات المتكررة كبير ، ولا عجب ، فالتكرار من ناحية غريزى ، ومن ناحية أخرى منهجى . واجتمعت العوامل كلها على تكرار الأموال المحبوبة . انظر المقابلة بين القطع المتشابهة في الإلياذة والأوديسية والمزامير ، في :

Henry Dunbar, Complete concordance to the Odyssey and hymns of Homer (Oxford, 1880), pp. 391-419.

(٥) وردت الكلمة (Aoidos) مرة واحدة في الإلياذة ، (٢٤ - ٧٢١) ، ومرت عديدة في الأوديسية وفى هيبودوس ، ويقابلها في اللاتينية كلمة (Vates) ، ومعناها شاعر أو عراف . (٦) الكلمة اليونانية المستعملة هنا هى (rhapsodoi) ومعناها الحرق حائكو الأغانى .

واستعملت هذه الكلمة لأول مرة في هيرودوتوس (٥ ، ٦٧) للإشارة إلى من ينشدون أشرطة هوميروس . ولكن من المحتمل أنها صيغت قبل ذلك ، لأنها تعبر عن عمل الشعراء المتجولين الأولين أكثر من عمل المنشدين المتأخرين الذين قلت ابتكاراتهم بسبب ما حظيت به الملاحم تدريجاً من قداسة .

(٧) مات بارى وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره ، قبل أن يستطیع الانتفاع بما تجمع لديه من مادة ، ولذا لم ينل عمله ما يستحق من الالتفات والثناء . ولهذا ربما تلقى التفاصيل التالية ترحيباً ،

ومنها أنه سجل أكثر من ٢٥٥٠ أسطوانة من ذات الوجهين من أفواه تسعين منشداً مختلفاً ، وأن تسجيلاته هذه تحتوي على ملحمتين طويلتين تتألف إحداهما من ١٣٠٠٠ بيت ، والأخرى من ١٢٠٠٠ بيت ، (وهي في ٢٢٠٠ أسطوانة) كما تحتوي على ٣٠٠ أغنية أخرى من النوع المسمى أغاني النساء (وهي في ٥٣٠ أسطوانة) . وفي كثير من الحالات سجل باري نفس القصائد والأغاني من منشدين مختلفين ، أو سجلها مرتين من المنشد نفسه بعد مضي بضعة أيام أو أسابيع بين التسجيلين . وبفضل هذه الطريقة يستطيع الباحث قياس التغييرات الفردية وفهم انتظام النقل الشفوي أو عدم انتظامه مهما جيداً . وأتم باري عمله قبل فوات الأوان ، فإن إنشاء الملاحم التي سجلها كان آخذاً في الاختفاء بسرعة ، ولولا ما قام به باري لضاعت روايات ترجع إلى أقدم المصور . وهذه التفصيلات مستقاة من مقال كتبه المؤلف الموسيقي بيلا بارتوك (في جريدة تيمس ، ٢٨ يونية ، ١٩٤٢) بعد أن فحص الأسطوانات التي سجلها باري لاهتمامه الخاص بالناحية الموسيقية فيها . انظر أيضاً :

Harry Levin "Portrait of a Homeric scholar," Classical J. 32, 259-266 (1937)

حيث توجد قائمة بمؤلفات باري .

(٨) اقتطف سولومون جاندرني كتابه : "The dawn of literature,"

Osiris 7, 304-308, 353, 384-385, 407 (1939).

أمثلة عديدة لهذه المقدرة التي تترامى لنا سحرية . وذكر سنت بيف أمثلة فرنسية حديثة في تقريره لكتاب جرروت ، تاريخ اليونان (أحاديث الاثنين الجديدة ١٠ ، ٦١ ، المطبوع ١٨٦٥) . ويوجد وصف لأحد الفيديانيين (أعني حفظة الفيديا عن ظهر قلب) في رسالة إلى ماركس ميلر من بومباي ١٨٦٣ . انظر :

Life and letters of Friedrich Max Muller (London, 1902), vol. 2, p. 134.

ومن باب المقارنة نورد هنا قصة توضح وجهة النظر الجديدة التي نجمت عن انتشار الطباعة ، وهذه القصة أنه ظهر جماعة من محبي الأغاني بمدينة نابلي بإيطاليا أن منشدهم أعشى ، وأنه كان يتظاهر بقراءة ملحمة أورلاندو من كتاب مؤلفها أريوستو ، ولكنه كان في الواقع يتلوها من ذاكرته ، فختم اكتشافهم هذا على مقامه عندهم . انظر :

Marc' Monnier, Les contes populaires en Italie (Paris, 1880). p.78.

ورقت هذه الحادثة أواخر القرن التاسع عشر الميلادي :

(٩) نذكر هنا على سبيل المقارنة أن أغنية رولاندو (١١ - ٢) كُتبت بعد وقوع الحوادث

التي ألهمتها بنحو ثلاثة قرون .

(١٠) الإلياذة ٢ ، ٤٩٤ - ٧٧٩ .

(١١) إذا استعملنا التواريخ المصرية فالحوادث المشار إليها ترجع إلى الأسرة العشرين

(١٢٠٠ - ١٠٩٠ ق . م .) أو الواحدة والعشرين (١٠٩٠ - ٩٤٥ ق . م .) ، أما القصيدة
فترجع إلى الأسرة الثانية والعشرين أو الأسرة الليبية (٩٤٥ - ٧٤٥ ق . م .) .
(١٢) الإلياذة ٦ ، ١٦٨ - ١٦٩ :

*Pempe de min Lyciende, poren d'ho go semata lygra grapsas en pinaciotryctoi thymo-
phthora polla.*

يجب ألا نتخذنا كلمة (grapsas) إذ المعنى القديم لكلمة (grpho) هو الخدش ، وبعد ذلك
بزمن طويل جدا أصبحت تعنى الخط أو الرسم (هيرودوتوس ٢-٤١) أو الكتابة (هيرودوتوس ٢-
١٢٥) . وكلمة anagignosco التى تعنى المعرفة الجيدة أو التمييز استعملها بندار (حوالى
٥٢٢ - ٤٤٢) أولاً بمعنى القراءة ، وكانت كلمة epilegomai تستعمل أولاً لتدل على المعنى
نفسه عند هيرودوتوس (١ - ١٢٤ ، ١٢٥ وغيره من البنود) . ولم تكن هناك قبل بندار كلمة
تعنى القراءة . فالكلمة السورية biblion استعملها أولاً هيرودوتوس لتدل على الورق أو الخطاب .
ثم استعملها أرسطوفى معنى كتاب .

(١٣) أقدم ملحمة فى الغروب هى أيضاً أطولها فهى تحوى ١٥٦٩٣ بيتاً ، وهماك أرقاماً قليلة
عن الملاحم الأخرى على سبيل المقارنة ، فتحوى الأوديسية ١٢١١٠ بيتاً ، والإلياذة ٩٨٩٥ بيتاً ،
والكوميديا الإلمية ١٤٢٣٣ بيتاً ، والفردوس المفقود ١٠٥٦٥ بيتاً . وتمتد قصيدة « الرجل الذى
حوكم من أجل الحب » أو « الذى عذبه الحب » (Erotocritos) والتى يحتفل أنها وضعت
فى النصف الأول من القرن السادس عشر والتى تنسب إلى بيتزنتوس هو كورنارو Vincenzo Cornaro
من بلدة سيتيا من أعمال جزيرة كريت ١١٤٠٠ بيت سيمى (أبيات تتألف من ثمانية
مقاطع يضاف إليها سبعة أخرى) ، وتحوى الملحمتان اليونانيتين المشار إليهما آنفاً ١٣٠٠٠ بيت
و ١٢٠٠٠ بيت . ومن عجب أن هذه الملاحم جميعها تسير على وتيرة خاصة من ناحية الطول ،
فأكبرها أطول من أقصرها بنحو خمسين فى المائة . حقاً إن أغنية رولاندر (١١-٢) والملاحمة
البيزنطية ديجنيس أكريتاس التى نظمت قبل بداية القرن الرابع عشرهما ملحمتان قصيرتان إلى حد ما -
إذ تحوى كل منهما أقل من خمسة آلاف بيت . انظر :

Karl Krumbacher, Geschichte der byzantinischen Literatur (Munich, ed. 2, 1897), pp.
827-832, 870-871;

Henri Grégoire, Digenis Akritas (New York, 1942) Isis 34, 263 1942-43).

أما الملاحم الشرقية فهى أكثر طولاً . فالمهاهاراتا تعد حوالى ٢٢٠٠٠٠ بيت والرامايانا حوالى ٤٨٠٠٠
بيت والشاهناما للفردوس (١١ - ٢) ، ٦٠٠٠٠ ، والمثنوى لجلال الدين بن الرومى (١٣ - ٢)
٢٦٦٦٠ مقطوعة . وفى هذا دليل على ما انطبع عليه الشرق من إسراف ، على حين أن طول الملاحم
الغربية أكثر اتصافاً وحجم الإنسان وطول حياته .

(١٤) الفرق بين الآداب اليونانية واللاتينية عظيم من هذه الناحية ، إذ يظهر هوميروس في بدء العصر اليوناني أو قبل أن يبدأ هذا العصر . وعلى العكس من ذلك عاش فرجيل من ٦٨٢ - ٧٣٤ بعد بناء مدينة رومة (٧٠ - ١٩ ق . م .) ، أي أن الرومان وصلوا إلى النضج السياسي وأصبحوا قوة دولية كبيرة قبل أن يكون في استطاعتهم المفاخرة بأدب جدير بأمة عظيمة . فن نهاية الحرب البونيقية الثانية (٢٠١ ق . م .) كان إنتاجهم الأدبي لا يزال من ذوع ردى . ولم يستيقظ طموحهم الأدبي تماماً إلا بعد فتح بلاد اليونان نفسها ، أي بعد نصف قرن .

(١٥) الرأى القائل بأن الإلياذة والأوديسية لم ينظمها مؤلف واحد ليس بجديد بأى حال من الأحوال ، إنه يرجع إلى العصور الهيلينية الأولى ، أي إلى القرن الثالث قبل الميلاد حينما عرف من يؤيدون هذا الرأى بالمفرقين *hoi chorizontes* ومع ذلك قبول رأيهم بالرفض أكثر الأحيان . (١٦) للاطلاع على مقارنة مفصلة ، انظر :

Carl Rothe, Die Odyssee als Dichtung und ihr Verhältnis Zur Ilias (370 pp.; Paderborn, 1914).

(١٧) خلف المصريون لنا حكايات قصيرة ، ولكنهم لم يخلفوا وراءهم قصة من الحجم المتعاد .

Werner Jaeger, Paideia, the ideals of Greek culture (Oxford:Blackwell, 1939), vol. 1, p. 28 (Isis 32, 375-376 (1949).

Ex arches cath' Homerom epei memathecasi pantes, Hermann. (١٩) انظر :

Diels, Die Fragmente der Vorsokratiker (Berlin : Weidmann, ed. 5, 1934), vol. 1, p. 131^a frag. 10.

Nemean II, 1-2. Homēridai rhaotōn epeōn aoidoi. (٢٠)

(٢١) تم تحقيق أول نص لأشعار هوميروس زمن بيستراتوس طاغية أثينا . وضاع هذا النص بعد موته سنة ٢٧ ق . م ، أو أنه أهل . ولكن الأشعار الهومييرية ظلت حية عن طريق الإنشاد العام والخاص وذلك في الأعياد القومية ومنها عيد أثينا الذي كان يعقد كل عام ، والمباريات الموسيقية في عيد أثينا الأكبر الذي كان يعقد كل خمسة أعوام (أدخل بيستراتوس هذا الإنشاد) . وترهن المقتطفات العديدة التي توجد في هيرودوتوس وأفلاطون وأكسيونون على وجود ذلك النص القديم . فهذه المقتطفات من السهل (إن لم توجد دائماً بنصها حرفياً) معرفتها في الطبقات التي بين أيدينا وتوجد طبعتان (*diorthoseis*) أخريان لأشعار هوميروس ، إحدها أعدها الشاعر أنتيباخوس من بلدة كلاروس (بالقرب من كولوقون من أعمال إيونيا) الذي ازدهر في أواخر الحرب البيلوبونيزية ، والأخرى أعدها أرسطو للإسكندر الأكبر الذي حملها في كل غزواته . لم تبدأ دراسة النص دراسة علمية إلا في العصر الهيلينى ، حيث اعتبر زينودوتوس من بلدة إفسوس (٣ - ١ ق . م .) ، الرئيس الأول لمكتبة الإسكندرية بأنه كان « أول » ناشر (*diorthōtēs*) ، إذ قيل إنه أخرج قبل عام ٢٧٤ ق . م .

« أول نص للإلياذة والأوديسية. ولكن الحقيقة أن زينودوتوس لم يكن أول ناشر، ولكنه كان أعلم باللغة من سبقوه ، ومن المحتمل أن تقسيم كل من الملحمتين إلى أربعة وعشرين كتاباً كان من عمله . وأدخل الرثيسان الرابع والخامس لمكتبة الإسكندرية ، أعنى أرسطو فانيس من بيزنطة (١-٢ ق.م.) وأرستارخوس من ساموثراقية (٢ - ١ ق . م .) تحسناً كبيراً على طرق زينودوتوس . فالنص الذي نعرفه جيداً من تحقيقاتهما . ثم أصلح ديديموس من مدينة الإسكندرية (١ - ٢ ق . م .) نص أرستارخوس . وهلم جرا . فتاريخ الدراسات الهومييرية قطاع عرضي في تاريخ البحث العلمي عند اليونان .

(٢٢) انظر : Ho pater epimelumenos hopos aner agathos genoimen, enancase

panta ta Homeru epe mathein. Xenophon, Symposium, III, 5.

(٢٣) انظر : جمهورية أفلاطون ٦٠٦ هـ .

(٢٤) انظر : W. Helbig, Das homerische Epos aus dem Denkmalern erläutert

(362 pp., ill.; Leipzig, 1884; 2nd ed., 480 pp., Leipzig, 1887)

Martin P. Nilson, Himer and Mycrae (296 pp., 52 ills. 4 maps; London : Methuen, 1933).

كان كتاب هيلبيج أبعد ما يكون عن الكمال ولا سيما أنه خلط بين الآثار الموقنية واليونانية بل الأترسكية كذلك . ويشتمل كتاب نلسون على نقط جدلية كثيرة ، ولكن نظريته الأساسية لا يتطرق إليها الشك . انظر :

H.L. Lorimer, Homer and the monuments (575 pp., ill.; New York : Macmillan, 1950).

(٢٥) هذا هو (Oceanos adorroos) الوارد في الإلياذة (١٨ ، ٣٩٩) ، والأوديسية (٢٠ ، ٦٥) .

(٢٦) انظر الإلياذة ٢١ ، ١٩٥ - ١٩٧ .

(٢٧) هذا هو (Ietros gar aner pollon antaxios allon) الوارد في الإلياذة ١١ ، ٥١٤ .

(٢٨) انظر الإلياذة ١٦ ، ٢٨ .

(٢٩) انظر الأوديسية ٤ ، ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٣٠) تحمل الكلمة اللاتينية oraccordia نفس النعوض والإبهام .

(٣١) يسهل تحليل هذه الأخطاء وأشباهاها ، مثال ذلك أننا نميل إلى إرجاع انفعالاتنا لا إلى

المخ حيث تبدأ ، ولكن إلى القلب حيث نشعر بها فعلاً ، إذ الواقع أن الانفعالات تغير من ضربات القلب ، بل تسبب خفقانا مزعجاً .

(٣٢) انظر الأوديسية ١٧ ، ٢٩٧ .

(٣٣) انظر الأوديسية ١٧ ، ٣٨٣ - ٣٨٦ .

(٣٤) الأوليوية مدة زمنية طولها أربعة أعوام ، تفصل الواحدة منها بين الأعياد الرياضية التي أقيمت مرة كل أربعة أعوام في أولبيا بإقليم إيليس . وبداية الأوليوية الأولى (٧٧٦ - ٧٧٣) من فوز كوريسوس من إقليم إيليس في سباق العدو عام ٧٧٦ . ولم يصبح التاريخ بالأوليويات أمراً منظماً إلا في وقت متأخر جداً على يد تيمايوس من تورومينيوم بجزيرة صقلية (٣ - ١ ق . م .) .
(٣٥) انظر الإلياذة ١٨ ، ٥٩٠ .

(٣٦) هذا هو الراجح إلا إذا كان بعض أنبياء التوراة - عاموس ، هوشع ، ميخا ، إشعيا - سابقين على هوميروس ، ولكن ذلك موضع شك حتى فيما يخص عاموس .

(٣٧) ليس في أوراق البردي إشارات إلى المشدين فحسب ، بل توجد نصوص هوميوية أصيلة كثيرة . فإن أردت أمثلة ، فانظر :

Paul Collart, «Les papyrus de l'Iliade» in Pierre Chntraine, Paul Collart and René Langumier, Introduction a l'Iliad (304 pp.; Paris : Les Belles Lettres, 1942).

حيث يوجد ثلثمائة واثنتان وسبعون قطعة من أوراق البردي تحوى أجزاء من الإلياذة ، فضلا عن خمس وثلاثين بردية فيها شروح وتعليقات ومقطوعات منثورة . فهذه الأربعمائة والسبع البرديات ترجع إلى الحقبة الواقعة بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن السابع بعد الميلاد . ويزداد عدد هذه البرديات كلما اقتربنا من القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم يأخذ في النقصان مع اضمحلال الثقافة اليونانية في مصر . انظر :
Chronique d'Egypte, No. 36 (1943), P. 315.

(٣٨) لم تترجم الإلياذة إلى اللغة العربية إلا منذ وقت قريب جداً ، نقلها إلى العربية سليمان البستاني وطبع لأول مرة في القاهرة في ١٩٠٤ وهي فريدة في الأدب العربي وليست بذات أهمية في دراسة التراث الهوميروي .

(٣٩) من المؤكد أن التراث الهوميروي استمر في رواية فرجيل ، غير أن تقريرنا هنا ينصرف إلى هوميروس مستقلاً عن فرجيل .

(٤٠) يحتمل أن تكون قصة تيلهاك ألفت في ١٦٩٣ - ٩٤ م ، وأما تأخير نشرها إلى ١٦٩٩ م فيرجع إلى عدم تحرز ناسخ ، على أن الطبعة الرسمية وهي لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن الطبعات الجديدة السالفة لها ، فقد ظهرت في ١٧١٧ بعد سنتين من وفاة رئيس كبرى ، بعناية سليل من العائلة ، وهو المركيزدى فينيلون .

(٤١) في القرن التاسع عشر لم تعد قصة تيلهاك معتبرة من القصص المنحرفة المجددة ، بل على العكس أصبحت معتبرة قصة محافظة جداً ، وعلى مر الأيام غدت قصة جد عتيقة . هل يسمح لي القارئ أن أقص عليه الحكاية التالية؟ كثيراً ما أخبرتني جدتي لأبي التي تعلمت في مدرسة فرنسية تشرف عليها راهبات أن قصة تيلهاك كانت أحد كتبها الأساسية المقررة ، وأن الراهبات ألقين في روعها أن قصة تيلهاك تحوى جميع الكلمات (الجيدة) في اللغة الفرنسية ، ويستخلص من هذه الحكاية أنه على حين

كان كتاب ملخص التاريخ المقدس (أو ما يشبهه من الكتب) هو منبع التراث العبري والمسيحي لتعليم جدتي ، فإن تيلهاك غرس في ذهنها الثقافة الهوميروية واليونانية .

وترجمت قصة تيلهاك من الإنجليزية إلى اليابانية عام ١٨٧٩ تحت عنوان : هينر ومومويوجاتوري واستخدام في ترجمتها الأسلوب الذي كتبت به الروايات اليابانية القديمة وهو نثر موزون عليه مسحة من الصينية : انظر :

G.B. Sansom, *The Western World and Japan* (New York : Knopf 1950), pp. 400, 40
(Isis 42, 163 (1951).

وهكذا وصل الفكر اليوناني كما فسره أحد الفرنسيين في القرن السابع عشر إلى الشرق الأقصى بعد قرنين اثنين من نقله إلى الفرنسية .

(٤٢) يرتكز تاريخي لقصة إيشويوكا على البحث الذي قدم به R.M. Rattenbury لطبعته التي نشرتها جماعة . Guillaume Budé (2 vols. Paris, 1935-1938) وهذا التاريخ افتراضي ، لأنه ليس من المؤكد أن مؤلف القصة والأسقف شخص واحد .

(٤٣) انظر : Aethionica, III, 14.

(٤٤) فضل الكاتبون المتصوفون أمثال بريناس (٢ - ٢) في كتابه وصف بلاد اليونان ١٠ ، ٢٤ ، ٣ ، وفيلوستراتوس من ليمنوس (٣ - ١) ، وهيرويكوس ٢٨ ، ١ ، ٣ ، أن يترقوا بجملهم بأصل هوميروس منذ تعرضهم للحرب الطروادية في مؤلفاتهم .

(٤٥) يقع هذا الكتاب في ثلاث مجلدات (غنت ١٨٠٦) . ورأيت أن أورد هنا صورة صحيفة العنوان المنهجي من نسخة تفضلت مكتبة الكونجرس بإعارتها . وتوجد صحيفة العنوان هذه في كل المجلدات الثلاثة ، ونص آخر سطر من العنوان الإضافي في كل من هذه الصفحات كالاتي : « إن الشاعرين هوميروس وهسيودوس كانا أصلا من بلجيكا » . ولمعرفة أخبار المؤلف ، انظر النبذة المدونة في المجلد الأول ، ص ٩ - ١٦ والمقال الذي كتبه :

Edm De Busscher in *Biographic nationale de Belgique* (Brussels, 1876), vol. 5.
pp. 114-127.

(٤٦) انظر : Olaus Rudbeck, *Atlantica* (1679-1689)

ولهذا الكتاب طبعة جديدة أشرف على إخراجها Axel Nelson في مطبوعات الجمعية السويدية لتاريخ العلوم (أبسالا ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ، ١٩٤١) (إيزيس ٣٠ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٩٣٩) ٣١ ، ١٦٥ ، ١٩٣٩ - ١٩٤٠) ، ٣٣ ، ٧١ ، ١٩٤١ - ١٩٤٢) .

(٤٧) لدينا وثائق كثيرة عن حياة فردريك أوغست وولف ومؤلفاته (١٧٥٩ - ١٨٢٤) ، انظر :

Wilhelm Korte, *Leben und Schriften Friedr. Aug. Wolf s, des Philologen* (2 vols. Essen, 1839).

J.F.J. Arnoldt, Fr. Aug. Wolf in seinem Verhältnisse zum Schulwesen und zur Paedagogik (2 vols. Brunswick, 1861-62).

Victor Bérard, Un mensonge de la science allemande (300 p. Paris, 1917).

Siegfried Reiter, F.A. Wolf. Ein Leben in Briefen (3 vols. Stuttgart : Metzler, 1935).

وبه قطعة كتبها وولف عن حياته (المجلد الثاني ، ص ٣٣٧ - ٣٤٥) .

(٤٨) استخدمت كلمة « جبل » هنا بمعنى الجهل بفقہ اللغة ، فلم يكن شليمان عالماً مدرساً ، بل هاوياً علم نفسه . ومع هذا حفظ شليمان أشعار هوميروس عن ظهر قلب ، وعرف الألفاظ اليونانية وأحاط بالمعاني التي تثيرها في مخيلته عبارات اليونانيين . ثم إنه عكف على دراسة اللغة اليونانية حتى أتقنها ، وصار في استطاعته مناقشة الآداب اليونانية المحلية مع زوجه اليونانية (منذ ١٨٦٩) وأصدقائه ، فضلاً عن المدرسين والبشارة والرعاة اليونانيين ، وكذلك أعظم علماء اليونان ، وكذا أقل الناس شأنًا . ومن هذه الوجوه فاقت عدته العلمية تفوقاً هائلاً على عدة الباحث العادى .

(٤٩) لقي شليمان نقداً كثيراً لا من علماء اللغة ذوي الكراسى الوثيرة فحسب ، بل من علماء الآثار الذين عابوا طريقه بعد أن رأوا ما أدخل على فن الحضريات من تحسينات فيما بعد . وإذا أردت تقديراً عادلاً لجهود شليمان فانظر :

Stanley Casson (1889-1944), The discovery of man (London : Harper, pp. 226-227 (Isis 33, 302-303 (1941-42).

(٥٠) Paroimia, Gata ten paroimian = كما يقول المثل (أفلاطون) . توجد قائمة للأمثال

اليونانية في كتاب :

Hermann Bonitz, Index aristotelicus (Berlin 1870), p. 570.

(٥١) هذا هو النص اليونانى :

Ei caca tis speirai, caca cerdea c'amesien Hesiod, fragment in Loeb Classical Library ed., v. 74.

(٥٢) هذا هو النص Ego. de ce . . etëtyma mythëaimën من قصيدة الأعمال والأيام ،

بيت ١٠ .

(٥٣) وقع مقتل هسيودوس ، نقلًا عن ثيوكلديديس ٣ ، ٩٦ بالقرب من معبد زيوس في بلدة نيميا بإقليم أرجوليس ، وربما كان هذا القول ناشئاً عن خطأ في الفهم . ذلك أن ذكرى مصرع هسيودوس واردة في الأبيات الجميلة التالية التي نظمها القايروس من مسينا حوالي ٢٠٠ ق . م . ، « عندما رقد هسيودوس ميتاً في ظلال أشجار لوكريا ، غسلت عرائس النهر جثمانه بماء من يتابعهن ، ورفعن قبره عالياً ، ونثر رعاة المزرع عليه قرابينهم من لبن مزوج بعسل شهد أصفر . وهكذا قالت ربوات الفن التسع أن ذلك الرجل المعجوز قد ذاق يتابعهن النقية » . البيت الأول في النص اليونانى هكذا

(أنثولوجيا يونانية ٧ ، ٥٥) . *Locridos en nemei sciero necyn Hesiodoio* وتعنى لفظة (nemus) المراعى المغطاة بالأشجار ، واسم العلم نيميا مشتق منه ، ومن الممكن أن ثيوكلدس خلط بين كلمة عادية واسم البلدة المشتق من هذه الكلمة .

(٥٤) أشهر البيوتيون بالغناء وبلادة الفهم ، وشفق اللاتينيون بالسخرية منهم . وسواء استحق للبيوتيون هذه الشهرة السيئة أم لم يستحقوها ، فقد حفظت اللغة الإنجليزية لفظين هما : بيوتيا *Bocotia* وبيوتى *Boeotian* بمعنى البلادة والبلداء .

(٥٥) قصيدة الأعمال والأيام ، الأبيات ١٠٩ - ٢٠١ .

(٥٦) المصدر نفسه ، الأبيات ٣٨٣ - ٦٩٤ .

(٥٧) المصدر نفسه ، الأبيات ٢٨٣ - ٤٠٤ ، ٥٨٢ - ٥٩٦ . وهذه المقتطفات من

ترجمة :

Hugh G. Evelyn-White in the Loeb Classical Library, pp. 31, 47 (1914).

(٥٨) أحسن هذا جميع الناشرين الأولين الذين قاموا على نشر قصيدة الأعمال والأيام ، والواقع أن الطبقات الأولى لهذه القصيدة لم تقتصر على قصيدة الأعمال فحسب بل اشتملت كذلك على دعويات تيوكريتوس السرقوسى التى يرجع تأليفها إلى ٢٨٥ - ٢٧٠ ق م .

(٥٩) انظر : *S.N. Kramer, Scientific American (New York, November 1951), pp. 54 — 55.*

(٦٠) قصيدة الأعمال والأيام ، الأبيات ٧٢٧ - ٧٣٢ .

(٦١) المصدر نفسه ، مكتبة لويب ، ص ٦٥ .

(٦٢) قصيدة أصل الآلهة ، الأبيات ٢٩ - ٣٤ .

(٦٣) المصدر نفسه ، مكتبة لويب ، ص ٨١ .

(٦٤) الإلياذة ١ ، ٧٠ .

(٦٥) هذا هو النص اليونانى :

Ego eimi nan to gegonos cai on cai esomenon cai ton emon deplon undeis po thnetos anecalypsen. Plutarch, Isis and Osiris, 354 c.

(٦٦) ورد اسم هسيودوس فى البيت الثانى والعشرين من قصيدة أصل الآلهة . ويفهم من هذا أنه إشارة من المؤلف المتأخر الذى نظم قصيدة أصل الآلهة إلى هسيودوس الذى كتب الأعمال والأيام . ألا يمكن كذلك أن يفهم من هذه الإشارة أنها إشارة من الشاعر هسيودوس إلى نفسه فى قصيدة متأخرة ، وهى قصيدة أصل الآلهة .